

المجلد الثالث

لبنان ان حكى

نوبليس



سعيد عقل

شعرُه والنثر

المجلّد الثالث

لبنان ان حكى

نوبِليس

DL

للمؤلف

بنت يفتاح الطبعة الأولى ١٩٣٥ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة)

قدموس الطبعة الأولى ١٩٣٧ ــ الطبعة الرابعة ١٩٩١

المجدلية الطبعة الأولى ١٩٤٤ ــ الطبعة الثالثة ١٩٩١

رندلى الطبعة الأولى ١٩٥٠ ــ الطبعة الخامسة ١٩٩١

غد النخبة الطبعة الأولى ١٩٥٤ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة)

أجمل منك لا الطبعة الأولى ١٩٦٠ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة ومزيد عليها)

لبنان ان حكى الطبعة الأولى ١٩٦٠ ــ الطبعة السادسة ١٩٩١

كأس لخمر الطبعة الأولى ١٩٦١ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

اجراس الياسمين الطبعة الأولى ١٩٧١ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

كتاب الورد الطبعة الأولى ١٩٧٢ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

قصائد من دفترها الطبعة الأولى ١٩٧٣ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

دلزى الطبعة الأولى ١٩٧٣ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

كما الأعمدة الطبعة الأولى ١٩٧٤ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١
(مزيد عليها)

الوثيقة التبادعية الطبعة الأولى ١٩٧٦ ــ الطبعة الثانية ١٩٩١

خماسيات الصبا الطبعة الأولى ١٩٩١

المجلّد الثالث

لبنان ان حكى

الطبعـة الاولى ١٩٦٠ م
الطبعـة السـادسـة ١٩٩١

لبنان ان حكى



هنا تحت كل ترابَهْ
مفاتنُ مجدْ

هنا الله شرّع بابهْ
وضمَّكِ ضمةَ وجدْ

هنا جبَلٌ لا الأساطيرُ أشهى
ولا الشمس أبهى

أحايينَ يُغري سهولَهْ
بِفُلٍ وورْدْ

أحايينَ يلعب يُغري البطولَهْ
برِمية نَرْدْ

ص.ع.

سياحةٌ في لبنان ـــ لبنان الحضارة ! ـــ قد تكون أجمل شيء يُعطاه الانسان.

تراني أُبالغ ؟

لسوف يحكم اولئك الذين معنا سيسافرون.

في جزء من الوقت نزْر، دقائق لا تزيد، سنجتاز كل مرّة كرّاتِ سنين، حياة عظيم، حدثا توقف عنده مصير البشر.

الادب ؟ انه لَحَبس الدهر في عبارة، جرعةُ خمر، جرعةٌ واحدة، وتكون سكرةُ العقل.

على أننا لن نزور كل شيء.

كل شيء، هنا، اكبر من بحر، اكبر من دهر.

مجلدات ضخمة من التاريخ ستظل تنتظر من يؤلفها. وهذه الرقعة من الشطآن والربى انما اقيمت عليها مؤسساتٌ لا يثمنَّ فضلها. كانت الأولى وكأنما في البدء كانت. من ارض هي، واحياناً من افرادٍ لهثْ اصابعهم بالمعمور.

هنا وُلد أو قال أو عمِل نفر من آلهة المعرفة.

التطواف في هذه الصخور او تلك التلال لَيَشيلَنَّ بك إلى النجوم أو يملّكك الدنيا في لحظات.

تحت كل حصاة من الثرى الذي تدوس كل يوم، قصةُ مجد تُحكى. انها فصل من تاريخ الحب والعطاء، او هي بعض الحضارة.

من يعرفها ؟ من يعرف ان يقصّها ؟ اثنان... ثلاثة... أربعة على الأكثر... اما الأربعة ملايين من اللبنانيين فيمرون، كل آن، بجمال لا يعدله جمال ولا يدركون.

أواه ؟ ترى سنُعطى يوماً ان نحكي للزائر حكاياتنا الفريدة ؟

إنها حكايات تهمّ بني الارض جميعاً، وانما طابعها محض انساني، وتهم اصحابها ايضاً لأنها تعود بهم إلى أيام عجب كانوا في اثنائها يقولبون هذا الذي عاد وسُميّ الانسان.

رحلتنا من اين نبدأها ؟

هنا ما نحن على الطرقات. هنا نحن في الفكر. احرار إذن. فلنَتَنَقّل على هوانا.

قصة قبل أن تكون

هذا نحن، صدفة، في صيدون.

ما لنا ولما يعرفه عنها أيُّ الناس ؟ كأن نقول: عدد سكان صيدون كذا مِن الألوف، وانها كمرافئنا القديمة جميعاً قائمة على لسان امامه جُزَيرِيَةٌ، وعند مستهل الصيف تروح، لوفرة بساتينها، تضطرم برائحة زهر الليمون، حتى ليخيل اليك انك في جنائن عشتروت.

لا ولن نفتح على جلديه تاريخها البطولي ـــ ومن يدري فقد نعود إلى صفحات منه تأخذ بالألباب ! ـــ ولا نواجه دَورها في صناعة الجمال والذوق يوم كانت

مخازنها اشبه شيئاً بما هي اليوم مخازن باريس: يقصدها، على قول بيار هوباك، من اربعة اقطار العالم حسان الطبقة المترفة، بناتُ القادة والملوك، يتصيّغن أو يشترين جهاز عرس. لا، ولنترك التعرّف إلى صيدون تعرفاً منهجياً جافاً مكتفين بان نزيح ستاراً عن مشهد.

هل سمعت بفيثاغورس ؟

كيف لا ؟ لقد تعرفت اليه منذ عهدك الاول بمقعد المدرسة، في التيوريم المنسوب اليه في الهندسة.

ويرافقك طيلة حياتك ان كنت رجل معرفة. فهو احد عِلْية العقول في جميع الأزمنة. يحترمه افلاطون كما ولا احد، ويتحدث عنه ارسطو باجلال. فيلسوفٌ، وعالمُ رياضيات وفلك، وموسيقيّ، وكاهنٌ، ومكتشفٌ، وسياسيّ.

كل الديانات، التي قامت بعده، مدينة له. ومدين له كذلك كلُّ مذهب في الفكر، في المنقبية، او في صناعة الجمال.

كان والدُهُ واحداً من كبار الجوهريين في ساموس، احدى جزر الإيونيه، الأرخبيل الأغريقي الجميل، وامه الحسناء برتنيس. ويروى أنه، قبيل عرسهما الفخم، استطلعا فألهما لدى كاهنة « دلف » فقالت انه سيلد لهما « ولد

يكون خيراً على البشر جميعاً، وفي الازمنة جميعاً »، شريطة ان لا يعرف الزوج عروسته الا في اجمل المدن، حاضرة الذوق والفكر، عاصمة العالم. وانفرجت شفتا الكاهنة عن اسم المدينة، قالت: صيدون !

شهر عسل رائع قضاه العروسان في المتوسط، البحر الذي كانت تزرعه، فخمةً انيقة، سفنُ الصيادنة الشجعان.

وامام صيدون خُيّلَ اليهما، وقد ولجا أحد مرافئها الاربعة انهما شخصان مسحوران.

كانت صيدونُ باقتين من معاهدَ ودارات بيض: الواحدة مرمية في البحر، والاخرى معلقة على الشاطئ. وكان لبنان بعديد شجره المخروطيّ العطر اشبه باطار من الخضرة يحيط بالباقتين.

ويقال إن العروس، وقد ذُهلتْ امام مفاتن المدينة، لم تنتظر ان ترتاح من عناء البحر لتستمتع برؤية صروح كانت زيارتها موضوع خيلاء الشعوب. في اليوم نفسه، دارت على المحلات الكبيرة، اشترت لها اربعة فساتين وخاتمين وعقداً من اللؤلؤ، وحضرت في « المرسح الكبير » تمثيلية على « مصرع ادونيس »، وزارت معبد اشمون على الرابية، واستحمّت في البحر ضيفة على بنت الرئيس الثاني

لِـ « مجلس الاعيان »، ورقصت في علبة ليلية محفورة في الصخر، وفي اخريات الليل، قبل ان تودع النجوم، استمتعت بالنشيد الثامن من « الاوديسة » يلقيه فنان قدّم له بنبذة عن هوميروس.

عندما استيقظت برتنيس بعد ظهر اليوم التالي من نوم طويل طويل، راحت تسائل عريسها: « ترى في حلم نحن ؟ » واضافت متخابثة: « ما تقول لو نسميّ الولد صيدون ؟ »

واستمر الحلمُ اشهراً. الا انها، منذ الشهر السابع، اخذت تلازم دارة كانت قد استأجرتها في « الجنائن المعلقات »، وهي حيٌّ على المرتفعات يسكنه اثرياء الصيادنة والذين يرجعون إلى المدينة من مستعمراتها النائية.

ويولد لهما العظيم الذي سيسمّى فيثاغورس.

وتكون أعمال الزوج قد ارغمته على استعجال العودة إلى اليونان. اما برتنيس فتبقى والطفلَ في صيدون، تنتظر ان يتمّ سنته الاولى لتحجَّ به — وفاءً لنذر — إلى « افقا » حاضرة الدين والثقافة. هناك تغطّس رأسه في الماء المقدس وتزور به « ندوة الحكماء » — تماماً كما ستفعل زينوبيا يوماً — ومن فم كل منهم تلتقط نصيحة ستهمسها في اذن

الولد متى كبر، وتعدهم بأنه، متى اتمّ علومه في وطن والديه، سيعود إلى لبنان يحصّل علومه العليا.

في العقد الثالث من عمره سيؤم فيثاغورس بلداناً مشرقيّة شتى، منها لبنان. سوى ان برتنيس، وتكون قد اصبحت امه وتلميذته معاً، تظل يطيب لها أن تستوضحه ما درس خاصة في لبنان. فيما يروح هو، في ساعات ارقه، يسألها اغنية طالما هدهدته بها هناك:

« لبناني انت، يا بني،
« في صيدون بالذات، في سفح جبل الطيوب، وُلدت
« لبناني، انت يا بني،
« ذاك، ولو حقد عَليّ الاغارقة،
« لقبٌ به يفخر هوميروس
« أبو الشعراء ».

مأساة فيثاغورس

نحن في الدامور.

بلدة، بين البقيّة من بساتين التوت وتحت دير القديس يوسف، اشبه بعنقود عنب، بلّوريّ ضخم، تركه المارد على سفح جبل.

يطيب لبعضهم أن يردّ اسم الدامور إلى داموراس، والد ملكرت، إله البطولة. اما فرنجة العصور الوسطى فقد أُعجبوا بالاسم، لما له في الفرنسية من وشائج مع كلمة « حب ».

ولكن شيخاً طاعناً في السن، ينتمي الى اقدم عائلات

الدامور، كان، إلى ما قبيل وفاته، يتبسّم لهذه الاقوال لأنها اقلال من شأن البلدة العظمى.

ويسألونه تفسيره هو، فيسكت.

قصة موجعة تلك التي سنروي لأنّها على نهاية فيثاغورس، على مأساة فيثاغورس. قصة كتاب واناء من الدموع حملتهما إلى لبنان بنته الشابة.

عندما كان فيثاغورس يغادر لبنان، وهو على ذراعي امه، قاصداً إلى وطن أبيه، ودّعت برتنيس هذه الشواطئ بقولها:

ــ لكم أود لو نبقى في لبنان، الهادئ الجميل !

ولكن القدر شاء غير ما شاءت.

فيثاغورس الآن في قصرهم في جزيرة ساموس يُهيئ له والده تعليما لن يعطاه ابن غني سواه. منذ السادسة كان له ثمانية مدرّسين. ومنذ العشرين كان قد حصّل على هرموداماس في ساموس، وعلى بريسيدس في سيروس، وعلى طاليس وانكسيمندر في ملّه.

« كانت نفسه تستمع إلى ثلاث: الارض التي تقول: « قدر »، والسماء التي تهتف: « عناية »، والبشرية التي تصرخ موجعة: « جنون ». وانه هنا بينهن، فمَن من الثلاث يصدق ؟ »

وتقرأ أُمُّه الاضطراب في عينيه فتردّه بالفكر إلى خلف البحر. فيقول لها:

ــ صفي لي لبنان.

فتجهد محاولةً نقلَ الكواكب إلى الكلمة، ونقل عظمة النفوس.

فيقول فيثاغورس:

ــ يلخص حديثك، يا أُمّاه، بكلمة لا تزدوج: « الحرية ».

فتجيب:

ــ جوّ لبنان سمِّه بكلمة جديدة. « الحرية » ان شئت. ولكن حمِّل الكلمة اجمل المعاني. أن تكون شرط الحياة، شرطَ كل شرط.

وفجأة يدرك فيثاغورس انه، اذ تلفظ بكلمة « حرية »، اطلق خاطرة ستبقى على الدهر. ويقول: « بلى، وحدها الحرية تؤلف بين قدر الارض وعناية السماء وجنون البشر. الحرية ؟ إنها إرادة التغيُّر ».

ويسأل:

ــ حقاً في لبنانَ وحدَه حريّة ؟

وبعد أيام يلقي بنفسه في أول مركب مسافر إلى الشرق.

— اكتب إليَّ، تقول له برتنيس عند الوداع. من « الجنائن المعلقات ». اكتب إليّ.

ويتعرف فيثاغورس إلى صيدون فيحبها كما ولا شيء، لا لأنها مسقط رأسه بل للتوجيه العالي الذي توحيه إلى عقله، ولأنها ارض لبنان، مفزع العلماء ونبع الحكمة. ومنها يزور افقا، فجبيل، أقدم مدن العالم، فمنفيس، فثيبة، فبابل.

ولكنّه، في الإياب، يتساءل: اين يا تُرى ينتهي به المطاف ؟ اين يجعل منطلَقَ تعليمه ؟

في لبنان، يقول ؟ انه أهدأ بقاع المعرفة. ولكنه قد لا يكون في حاجة إلى فيثاغورس. فليقصد إلى « دِلف »، عاصمة اليونان الروحية. ان ابولون، إله المعرفة، قد شحب وجهُه واصبح بينه وبين الاغارقة ضباب. كيف يحق له أن يغضب عليهم ؟ تراه نسي جزيرتهم « دلوس »، تلك التي كانت تائهةً في البحر، كيف أُمرت بان تهدأ فترة من الزمن ريثما تضع « لاتون » ولديها « أبولون » و « أرتيميس » ؟

وتردّه هذه الذكريات إلى أن العناصر نفسها قدّست الأم. فلماذا لا ينزل، هو، على ارادة امه ويعمل في لبنان ؟

سوى أن مصيره يشاؤه ان يعمل في اليونان. وتكون شهرته قد سبقته إلى « دلف ». وفي « دلف » يلتقي الكاهنة تيوكليا. ان لها عبقريةَ اخذ لا توصف. فما هي ان تحضر دروسه حتى يشعر بانه اعطى « دلف » كل ما يريد وانْ في مكنته ان يترك. لكن تيوكليا تموت من حسرة الفرقة.

هو الآن في كروتون. يحدث مقدمُهُ شبهَ ثورة. صعبةً كانت تعاليمه. ولكنه كان يغلّفها بعذوبة ساحرة. وكانت حكمته تُعدي: جمالُ إشارته، نبلُ قامته، عذوبة المحيّا وحتى لباسه كلُّها كلُّها كانت تكمّل عمل السحر. النسوة يشبّهنه بزوش، والفتيان بأبولون، ويروح الجمهور من اجله يعشق الفضيلة ويسكَر بالحق.

وفي كروتون استكمل خلق نظامه الفكري. لم يُبقِ على شيء إلاّ تدخل في شأنه: أقام « مجلس علوم » فوق « مجلس الحاضرة »، قصْد ان يجعلها دوما متطورة، دوما متصلة بالتقدم. بَذَر معرفةَ الفلك في العقول، تلك التي على جَوْس لانهاياتها يرتفع الانسان إلى مصادقة العظمة.

رفع من قيمة كل شيء: علّم انه ينبغي الاهتمام بالمشية الانيقة، وانه ينبغي اعتبار الصداقة فوق الحب، « الصداقة، قال، هي شعر الحياة، وما سواها نثر ». وعلّم انه ينبغي نحت الضحكة بلوريةً على الافواه. « بضحكة، قال، تغيّر وجه الارض ».

هو لأوّل مرة في التاريخ « نظام أُخوّة عارفة »، فيه من المدرسة والرهبنة والعائلة. الناس سُعداء في كروتون. كلهم شعراءُ حياتِهم. واذا يرتدُّ احدهم ليعود إلى « الحياة التافهة » يقيمون له بينهم قبراً، ويرثيه المعلم بقوله: « بلى، فلنبكه فقد مات اكثرَ من الأموات ».

وكانت أُمُّه التي احبته كما ولا أحد، توحي اليه بأن الدنيا امرأة. « المجد، كان يقول، المجد للمرأة في الارض وفي السماء. انها لتجعلنا نفقه معنى المرأة العظمى التي تدعى الطبيعة ».

ويقول: « تَعْرِف فتقدر، تُحب فتبدع، تكون فتشيعٌ حقيقة وجمالا. والحب هو ان تنسى ما انت ».

وكان ينسى نفسه ولا ينسى وصيّة امه: « وددتُك لو تعمل في لبنان ».

وبقيَ يقلق لهذا الهاتف حتى أحبّ.

بين النسوة اللواتي كن يتابعن دروسه كانت ثمة واحدة شفّافة حسن، بيضاء بيضاء، تُدعى تيانو.

تيانو هذه كانت تحبّه ولا تدري.

وفيما هو، ذات يوم، في المدرسة تحت رواق بروزربين، أقبلت اليه تيانو منفردة وجثت امامه. ودون ان ترفعَ جبينها سألته هل يقدر ان ينقذها من حب يُذيب الجسد والروح. فسألها: « وما اسم من تحبين ؟ » فقالت: « فيثاغورس ». فلم يُجب بكلمة. وكان صمتُه مشجعا. عندئذ رفعت اليه رأسها الجميل تقدم نفسها كزهرة.

كانت تيانو الزوجة التي لم يَعرِف التاريخ اجملَ أو أشرف.

مرة سألتْها امرأة: « بعد كم يوماً من لقاء الرجل تعود المرأة طاهرة ؟ » فاجابت: « ان كان رجلَها طَهُرت للحال والا فلن يصير ذلك ابداً ».

وولد لفيثاغورس صبيّان: ارمنست وتلوغس وبنت وحيدة: دامو.

كانت دامو اعمق من يفقه تعاليم فيثاغورس، وكانت لوفرة حسنها كطيف، يسميها « الجميلة الجميلة » ولا يردّ لها طلباً.

وذات يوم سألته لهيفة:

ـ متى، يا فيثاغورس، تعمل في وطن فيثاغورس؟

وتجهَّم وجهه لصوت التي كانت قد ماتت يعود مُلِحّاً في فم الحفيدة.

ومنذ ذلك اليوم بدأ يعرف البكاء.

وفي أسطورة شاعت باكراً، انهم، لشدة تعلقهم به، كانوا يحفظون دموعه في اناء.

بقيت السعادة تخيّم على بيت فيثاغورس ونظامه ودولته حتى كانت الثورة.

الغَيرةُ من نجاح نظام مثالي، طُبّق في العالم لاول مرة ـ وربما لآخر مرة ـ اخذت تتأكّل بعضهم، فهاجموا بيتاً كان يجتمع فيه، برئاسة المعلم، ابرزُ اعضاء المدرسة، واشعلوا فيه النار.

مدة قرون بقيت هذه أو تلك من مُدُن العالم تؤكد ان فيثاغورس نجا، وانها انما كان لها فخرُ ايوائه. والاكثرية على انه مات محترقاً وانه لم يبق من عائلته سوى الجميلة الجميلة دامو.

وذات يوم، فيما كانت تستقِلّ مركباً مسافراً إلى الشرق، عرفها ربّانه فقال لها:

ـ أعطيك ثمن الذي تخفين على صدرك كل ما املك واسطولاً صغيراً من ثماني سفن.

فقالت:

ـ الذي على صدري هو كصاحبه.

فاكمل:

ـ لا يباع!

وللتوّ عرفت دامو ان الربان فيثاغوري.

وعلى مقربة من لبنان، تقاذفت المركبَ عاصفةٌ زعزع، فشطط عند مصبّ نهر.

كانت دامو قد قصدت إلى لبنان، إنفاذاً لوصية والدها، لعلها تستأنف تعليمه، هذه المرة، في مسقط رأسه. فتقيم مدرسةً ونظاماً اشبه بنظام كروتون. الا انها لم تتحمل العاصفة! وما هي ان نُقلت إلى البر حتى كانت جثة هامدة. وابى الفيثاغوري الرُبّان إلاّ ان يحمل بنتَ المعلم على ذراعيه ويدفنَها، مع كتاب واناء من الدموع كانا مشدودين إلى صدرها، فوق رابية مشرفة على البحر سمّاها دامو. وغرَس فوق القبر غرسةً لعلها، وهي السنديانة الوحيدة بين سائر الشجر، تبقى العلامةَ الفارقةَ يهتدي بها، إلى قبر بنت المعلم، الوف الالوف من اتباعه.

ويقال إنه في العام التالي زار الربّان قبر الجميلة الجميلة. فاذا غرسة السنديان قد كَبُرت كما لو كان قد انقضى عليها مئاتُ السنين، وشهد في ظلّها مدرسةً اقيمت في العراء ومعلّماً يرتدي لباساً أبيض، يدير الدرس، تساعده بنته الصبية. فتقدم وقد ذُهل لخاطرٍ مرّ بباله وهَمَسَ باذن الصبية:

ــ دامو ؟!

فاسكتته بقولها:

ــ أصِخْ: المعلّم يتكلم.

والتفت فاذا المعلّم قد سكت من تعب. اما شجرة السنديان، تلك التي كانت شروشُها تتغذّى بدم بنت فيثاغورس وبكتابه وبالدموع التي ذرفها لانه لم يعلّم في مسقط رأسه، فقد راحت تخفّف من عنائه وتكمّل الدرس...

أرض الأبطال

وراء العِطر ؟ أكيداً وراء العطر زهرة.

ولا بد أن يكون آباؤنا عملوا لزحلة العجب حتى بات ذكرها إلى هذا الحد محبّباً.

ولكن هناك من عمل لزحلة اكثر.
الله.

مدّها بهذا النهر، شريطةً من لجين ولا أجمل، تترقرق وسط الشجر الملتف. فاستطاب الرومان على تلك الضفاف صيد النمر. وطارت لها شهرة إلى اقاصي

الامبراطورية، فقصدوها من هليوبوليس وبيريت وربما من ابعد، وقنصوا على حواشيها، ورقصوا، وقصفوا.

بلى كانَ قد أُهرق هنا خمر وثني كثير قبل ان يشرب الزحْليُّ العرقَ الذي سيسميّه ايضاً « دموع العذراء ».

وعندما التقت كليوبترا حبيبها انطونيو في لبنان، تراهما، هما ايضاً، قَضَيَا بضعةً من ايام الصِبا في تلك الروضة الغّناء ؟

من يدري ؟

وفي كتاب قديم ان كليوبترا نظمت في انطونيو، وهما في بعض ربوع لبنان، قصيدة فيها تقول:

عندما كان اطلس،
اطلس اخو بروميثيوس،
ذاك الذي، لاشتراكه في القتال
بين جبابرة وآلهة،
كان قد استحق غضب زوش، فحكم عليه بأن يحمل على منكبيه قبة السماء،
عندما كان ابو الثوار
يختال بحمله المكوكب الجميل،
ترأَيتَ له، يا حبيبي انطونيو،
قبل ان تولد بكرّات الكرّات من السنين،

ترااْيت له بهيكلك العملاقيّ الانيق.
وكان ؟
كان أن ضاع اطلسُ، كمن أخذ بحميّا الكأس،
فزحلت السماءُ قليلا عن كتفه.
وانهار منها على الارض
بعضٌ من تراب !...
هذا المكان الذي من زَحْلةِ السماء،
هو هو الذي جمعتنا عليه، اليوم،
قبلةٌ تميت وتحيي،
وتبدأ لا لانتهاء ».

كان، اذن ، قد استفرس نبلاء من الرومان كثرٌ، على ضفّتي هذا النهر، قبل ان نزله الزحليٌّ الاول، منذ نحو ثلاثمئة عام.

وراح يبني بيتاً.

ــ في « وادي النمورة » ستسكن، سألته حطّابة مستفسرة ؟ انه زَحْلَةٌ من سماء تمتنع على العاديين من الناس.

فقال:

ــ سأسكن في التي تمتنع على العاديين من الناس.

ــ ينبغي ان تكون مفتول الزند، سديداً نشابُك.

ــ وولداي كذلك. اما بنتي الصبية فترمي لا تُخطئ. وهي طاهرة كقلب الصبح، ان رآها النِّمر غضّ عينيه.

وقالت الحطّابة:

ــ إذن، ستطردون النّمورةَ من الوادي ؟

ــ ومن غيره كذلك. وبدلا منها سنُسكِنه الاسود.

سنوات، سنواتٌ عديدة تنقضي.

واذا الضِفّة الغربية من النهر مزروعةٌ بالبيوت: من لِبنٍ معظمُها، وبعضُها من حجر.

ثم طفقت الطرابيشُ الحمر تعلو هنا وهناك.

ويقال إن الحطّابة عاشت مئةً واربعة أعوام. وكانت، كلما التقت امرأة بعينها، تسألها لهيفة:

ــ هذي أنتِ ؟ قال لي أبوك، يوم أسّس البلدة وكنت بعدُ صغيرة: « إن لي بنتاً صبية ترمي لا تُخطئ. وهي طاهرة كقلب الصبح ان رآها النِمرُ غضّ عينيه ».

فتردُّ هذه:

ــ والآن ؟ هل كبرتُ كثيراً ؟ وهل ذَوي طهري الذي كقلب الصبح ؟

فتجيب الحطّابة:

ــ هذا ؟ لست واثقة منه. اما النّمر فان رآك غضّ عينيه.

وكان أن أصبح لفئة من الناس، تضرب بين ترشيش ودمشق، بلدةٌ هي مرجع وزعامة.

وسيعتزّ الامير بشير يوماً بالزحالنة الذين يدخلون قلعة سانور طليعةً لجيشه.

ويملأُ اسمُ زحلة، البطلةِ الحسناء، لبنان القِدَم واللبنانَ الآخر المنطرحَ على المعمور.

انها فرسانٌ واسخياءُ ومقاديمُ وشعراءُ وصناعيون، أين حلّوا حلّت النخوةُ والعملُ المبدع ولكلمةُ الأنيقة وبسطَةُ اليد والشرف.

موقع البلدة المسوّرُ بالجبال كان خيرَ ما يوائم عهد البطولة الفردية، يوم كان على المرء ان يحمي نفسه وعِرضَه ويحمي جاره كذلك.

حتى اذا كان عهد التَمَدْيُنِ، واصبح الامن منوطاً بالدولة، ازدهرت قرى مكشوفة وقاسمت زحلةَ الطموح.

عندئذٍ سبقتها دساكرُ معلّقةٌ عند الغمام، يمتد نظرُها بعيداً، فوق الجبال، على البحر المترامي إلى آخر الارض.

وبقيت هي على الصيت العريض يحميها ويزيد من اعتزازها.

ان اسم زحلةَ اليومَ اكبرُ منها.

تراها ستلحق بشهرتها ؟ انهـا تمشي علـى رجليـن وشهرتُها تمتطي جواداً.

ويضطرب في صدرها مطمَعٌ بأن تستأنف لِعْبَ دَوْرِ المجد.

وهكذا تبدو وكأنّما على وجهها مسحةُ حزن.

المجد اليوم يختلف عنه بالامس. فالفروسيةُ والعملُ الفرديُّ وإجارةُ الملهوف والموتُ على حدّ السيف حَلَّ محلها بناءُ الصروح: المصنع، الشركةُ الكبرى، المختبرُ العلمي، المتحف.

ترى ستُعطى زحلة ان تشقَّ لنفسها وجوداً عصرياً في حَجْم ما تحلم به ؟

ها هي، غداً ذات ضاحية صناعية تشغل عشرات الآلاف من العمال، ولها دارٌ للاوبرا تؤمُّها الفرق من ميلانو وباريس، ومُتحف وتاريخٌ للبنان محفور بالرخام: مئةُ تحفةٍ يحجّها طلاب المجد وكل من مرّ ببعلبك وتدمرَ والاهرام.

وها هو شعبها: رجولةٌ رافعو الرؤوس، واطفالٌ اصحّاءُ ضاحكون، وحسانٌ ذواتُ قدود منحوتةٍ في اللازورد.

حُلُمٌ هذا، تقول ؟

ولكنكَ عظيم بقدر ما تحلم.

وفي بعض الحكايات المتناقَلَة، هنا، خَلفاً عن سَلَف، أن الحطّابة التي كانت قد بلغت في أواخر القرن الثامن عشر مئةً واربعَ سنوات، لا تزال تظهر من وقت الى آخر.

وهي انما تشاهَد ليلاً. لا يشاهِدُها الا الطاهراتُ القلب، من أولئك الحسانِ المرحات اللواتي يتنزهن على الضفاف.

وذاتَ مرة تراءت لصبية اجنبية، فبادرتها هذه بالقول:

ــ وانا، يا جدتي، هل تتنبئين لي بشيء ؟

فقالت:

ــ سيكون لك في بلادكم قصرٌ ونهرٌ موزَّعُ الشعّاب في جنائنه الضاحكة. لكنك، بالرغم من هذا، ستظلين عطشى إلى ماء بعينه...

وتسأل الاجنبية:

ــ والنَّمِر ؟

فتجيب العجوز:

ــ هذا... إياكِ وهذا ؟ انه ليأكلك. اما ان تزوّجتِ من هنا فيكون لك بِنْت...

وتُتمّ ترجومتها الشهيرة: « صبية طاهرة كقلب الصبح ان رآها النمر غض عينيه ».

ذلك ان الحطّابة، التي شهدت تأسيس مدينة الرجولة، لا تتصور الحسن، الذي دونه تتهيب الوحوش، الا في حسناءَ والدُها من الزحالنة الأبطال.

التي غناها شكسبير

لنقتعدْ حجراً من حجارة ذلك العالَمَ الذي دُعي صور. انه عالَمُ تاريخ، لا سَعَةُ ارض.

لنسرِّح بصرنا على جدار، هو البقية الباقية من كاتدرائية مار مرقس.

كانت، فيما قيل، تضمُّ رفات الامبراطور فردريك بربروس، وقامت على انقاض كنيسة ترقى إلى المسيحية الاولى، على انها اجمل معابد فينيقية وافخمها.

بدأ البندقيون تجديد الكنيسة الثانية عام ١١٢٧، وما فرغوا من التزيين الا بعد انقضاء مئة عام.

في انقاض هذا الجدار، راح الأثَريُّ الالماني الدكتور سبّ ينقب، منذ ١٨٧٤، عن رفات الامبراطور. لكنه، فيما كان يعمل كان شخص آخر، هو أديب انكليزي، يفتّش عن نهاية اروع قصّة.

قصة بطلة من بطلات شكسبير، طريفة الحسن شفّافة.

معلوم ان قلم شكسبير تعرَّض، كما ولا أحد، الى مواقف الهول والجنون والدم. لكنّه، بمقابل ذلك، اطلع اجمل حسان الشعر: أوفيليا، دسداموتا، كاترينا، كورديليا، ميرندا، وأخيراً اللبنانية الشفافة مارينا.

واذا مارينا، هذه، الحلوة بين حلواته دون منازع.

لفهم شخصية مارينا، بما حولها من خصب في القصص الغريب لن يدركه شكسبير مرتين، ومن جمال بحريّ فريد، ومن اضطلاع باعباء قلب لن يبوح العشاق بأخلص أو أنبل، ومن فجاءات ولعب بالالباب، لا بد من استجلاء فاجعته « بيركليس، امير صور »، التي كُتب عنها، في عهد شكسبير نفسه، انها « احرزت نجاحاً لم تعرفه ولا واحدة أُخرى من فواجعه كلها ». انها لَتَختصر حِدثان القلب وزلازل القرن. تمرُّسٌ بالمعرفة لم يبلغه غيرُ بضعة افراد في التاريخ، وانسحاقٌ مع الهول، وحطٌّ نظرٍ في

الجمال ينفذ إلى كيميائه، واكتناهٌ للحياة من علٍ وعن كثبٍ معاً.

منذ البدء، نحن امام شخصية « جور »، دليلنا في الإخبار وفضّ المُعمَّيات.

يقصّ علينا « جور » قصة القصر الانطاكي الذي يطالعنا مزروع الابراج بالرؤوس المقطوعة. فاذا هي حكاية مجد وفضيحة والد على علاقة ببنته.

هذا، وبيركليس، أمير صور الشاب، ضيف المملكة، يخطب بنت العاهل الانطاكي. حسناء دون نيلها حلُّ لغز. فان اخفق الطالب عُلّق رأسُهُ في الرؤوس.

يدرك الصوريُّ فوراً ان ثمة حباً محرّماً، فيحاول التملّص من محاولة حل اللغز، فيستشعر الانطاكي انفضاح امره، فيقول له انه يمنحه مزيداً من مهلة، وهو مُضمرٌ انه، خلاَله، سيقضي عليه.

يهرب الامير الصوري من انطاكية، مسلّما نفسه إلى البحر يسرّي عنه هولَ ما عرف، فتدهمه عاصفة تشتّت مراكِبَهُ وتدفعُه إلى مملكة « الخمس مدن »، حيث يغالب بعضَ الفرسان، فينال يدَ بنت مِلكهم.

وبعد عام، فيما هو في البحر، باتجاه مملكة صور، تمرض الاميرة الزوجة.

وتنازع.

فينقذون من أحشائها طفلة.

ووفاق عادة قديمة، تَتطيّر من ابقاء جثة في مركب، توضع الزوجة في تابوت محكم، مع رقيم من الامير يسترحم لها الدفن، وتلقى في البحر.

أما الطفلة فيدعونها مارينا. ويعهدون بها إلى ملك نزلوا في أرضه. وتكبر في كنفه فاذا هي آية في الذكاء والجمال. امر يستثير غيرة الملكة، فتدّبر لها هلاكاً على يد عَبْدها ليونين. سوى ان قُرْصاناً يخطفون الطفلة من العبد ويبيعونها رقيقاً أبيضَ، في جزيرة ميتلين.

« ــ لماذا تردد وتباطأ ليونين في قتلي ؟ كان عليه ان يضرب لا يُشفق. لماذا هاودتني قساوة القرصان فما رمت بي الى البحر افتش في قعره عن امي ؟

ــ فيم التوجع وأنتِ ذاتُ بهاء ؟

ــ لأنني ذات بهاء ؟

ــ قُيِضت لك يدان تكفلان لك الحياة.

ــ ما انا إلا أشدّ تعساً، وقد أفلتُّ من يدين تكفلان لي الموت ».

ويقول لها حاكم المدينة وقد جاءها يستمتع:
ـــ منذ متى انت هكذا ؟
ـــ منذ كان الزمن الذي اذكر.
ـــ لقد بدأت جدّ فتية... ترى كنتِ بنتَ لذةِ في الخامسةاو السادسة ؟..
ـــ بل قبل ذلك، يا مولاي، ان انا كنتها اليوم ».

وتصرخ به:
« أنا عذراء فانقذني... الا لتعضدني الآلهة ولو بأن تمسخَني عصفوراً يطير في طليق فضاء ».

وتسترحم الخادَم:
« ـــ خذ، خذ لك ذهباً. وان شاء سيدك مغنما فأُعلِنْه ان في مكنتي الغناء، وان أخيط أثواباً، وان أرقص. وفي طاقتي أن أدّرس كل ذلك. أكيد أن في المدينة طالباتِ معرفة ». ـــ

وينبئنا جور بانها نجت، وراحت تلقّن فتيات المدينة ما تعرف من فنون.

ويكون بيركليس قد عاد يستردّ بنته من المملكة التي تركها فيها. فيعلنونه انها ماتت، فيرسل شعره حزناً، ويهيم في البحار. حتى اذا حطّت مرساته في الجزيرة، جيء اليه بمن تُسرِّي عنه، فاذا هي مارينا. فيعرفها.

بيركليس لوزيره:

« ـــ آه، يا هيلكانيس. اضربني، افغر بجسمي جرحا، مُسَّني بأذى، مخافة ان يتدفق هذا الخضمُّ من الفرح فوق شواطئ زوالي ويغرقني في اللذة ».

ولا ينسى هذا اللبناني الورع ان يشكر للآلهة، فتصرخ به بنته:

« ـــ ولكن قُل لي من انت، يا سيدي، وما اسمك ؟ ».

ـــ أنا بيركليس أمير صور ».

ويسمع أنغاماً علوية لا يسمعها سواه، فتأخذه غيبوبة، ويهتف به هاتف الإلهة ديانا:

« ـــ في افيز معبدي. هلمَّ الى افيز وضحِّ لي. وعند احتشاد توابعي العذارى، وامام الشعب جميعاً، ارفع الصوت بانك فقدت زوجك في البحر ».

ويتمّ الأمير ما طلبته الإلهة، فاذا زوجه على قيد الحياة، احدى توابع المعبد، اصطيد تابوتها من بين الموج، واسعفتها طبيبة المدينة.

ويختم جور المأساة، يعلن هلاك الانطاكي وبنتِه وانتصارَ الحق والطُهر.

قيل في « بيركليس امير صور » إنها اقوى من « مكبث »، وانها افضل فواجع شكسبير جميعاً غِنى

قصص، وانها، في وصف الوفاء النسوي، اجمل ما خُطَّه قلم.

الفاجعة موضوعة منذ نحو اربعمئة سنة، فهل لها من أساس تاريخي ؟

ان الاديب الانكليزي، الذي كان ينقّب في انقاض الكاتدرائية، منذ العام ١٨٦٤، هو من سترتفورد، البلدة التي ينتمي اليها شكسبير. هذا كان كلما عاد إلى انكلترة يقول لمودّعيه على المرفأ:

ــ لم أحطَّ الرحال بعد، سأرجع إلى لبنان، وسأعثر على قبر مارينا. وفي عائلتنا في سترتفورد تقليد يقول إن جدي، وقد كان بحّاراً لبنانياً، هو الذي قصّ القصة على شكسبير، واخذ وعدا بان تكون بطلتها أجملَ بطلاته وان لا يحيد عن سياق التارخ.

« لكن شكسبير برَّ بالاولى، وفي الثانية تصرّف على هواه، جعل القصة تنتهي بان تتزوج مارينا حاكم متلين، وتكون هديةُ والدها عرشَ صور بالذات.

« لكن جدّي يقول ان مارينا لم تتزوج، وانها وحدها اعتلت عرش صور. وقامت، على الاثر، بفتح عبر « بحر الظلمات » وصل بها إلى بريطانية، حيث كان الفينيقيون

يستخرجون القصدير، وأسست فيها مملكة كانت اعدلَ ممالك الجزيرة.

« وفي التقليد المحفوظ في عائلتنا انه، يوم عودتها إلى صور، انتحر على شواطئنا أربعون الف شاب بان فَصَدوا أوردةَ سواعدهم لأنهم انما اقسموا ان ترافقها دماؤهم إلى المدينة الأم ».

إن قُيِّض لنا ان نعثر يوماً على قبر مارينا فقد نجد عليه كتابة تشير إلى الفتح وإلى حادثة الانتحار.

بلى، يتَر شكسبير القصة متدخلاً، هو ايضاً، في النزاع على سيادة البحر. وانما لقب « جبابرة التاريخ » خليق بان تَقتتِل من أجلِه سيوفٌ واقلام.

سِرُّ الملكة

ـــ هذا اليوم، وقَتْنا الآلهةُ شرَّه.

ـــ ماذا ؟ حلمٌ آخر ؟!

ـــ ومتى لم تصحَّ احلامي ؟

بهذا كان يتحدّث خفيران عند اسوار قرطاجة، في ساعة فجريّة باردة.

وما هي حتى شُدِهَ احدهُما. فالتفتَ الآخر. فاذا هو وجهاً لوجه امام الملكة.

ـــ إليسّا !

ـــ قُصَّ عليّ الحلم الذي رأيت.

كان الجنديُّ قد رأى ملكةَ قرطاجة. ولكن من بعيد. في موكبها. ملتفَّةً بمعطفها الأسود الطويل، تقصد وحدها هيكل عشتروت. لكنه لم يُعْطَ قبل اليوم ان يسمع صوتها يتوجه إليه.

فتلعثم.

ــ قل ولا تكتم شيئاً.

ــ ولكن...

فصرخت:

ــ قل !

سوى أنه لم يسمعْها: أغمض عينيه وانهار.

إليسّا الآن تدنو من الخفير الثاني، تودّ لو تعوّض بِلُطفها عما فعلت مهابتُها برفيقه.

ــ لا تخف، يا صديقي، مَلِكَةٌ انا ولكني بَشَر. بشرٌ حُمِّلْتُ همَّ الأرض. اقتعد هذا الحجر، ولنتحدث.

فأَنس الجندي. ولكن عينيه راحتا تتلفتان إلى رفيقه.

فقالت الملكة:

ــ عبثاً تكلف نفسك: لقد مات.

واقتعدت هي الحضيض. وأرسلت يدها إلى جبهة الصريع تداعبها وتبعثر من شعر.

ـــ وأنت هل يلذّ لك ان تعرف قصة أليسا ؟ الملكةِ الدَيْدون ؟ يكاد يهرب الزمنُ ولا يُفسح لي في أن أحكيَها.

« ما أطيب أن تَسمعها من فمي، أنت أحدُ جنودي الذي لا أعرف له إسماً، وتسمعها معك هذه الجثةُ الغفْل.

« أواه إنكما اعظم من العظماء ».

وسكتَت هنيهة ثم، بعد قليل:

ـــ مات والدي المَلِك، ملك صور، ولي من العمر تِسْعَ عشْرة سنة. اما الشعبُ فمال إلى أخي بكماليون. وبكماليون هو الاصغر.

« الرجال أخلق بالحكم، قالت صور.

« ولكنها لم تُنصِف.

« المُلْك ما المُلْك ؟ ما كنت لآبه له. لولا انهم اهانوا المرأة التي في ثيابي.

« سكَتُّ، وتزوجت اكرياس كاهن ملقرت. الا أنّ بكماليون طمع بماله الكثير. فقتله.

« هؤلاء هم الناس.

« واعتزمت الهرب.

« من الناس لا من الحياة.

« ونحن الصوريين والصيادنة ملاذُنا الصلاة، والكشف ونداء البحر الكبير.

« وكان حُلمي.

« سوى أن بكماليون مخيف. فهادنتُهُ لا خوفاً بل تمرُّساً بالصفح.

« فلم يفهمها.

« وذات صباح الحّ عليَّ حلمي، فلبّيتُه.

« أعلنت بكماليون انني سأنتقل إلى قصره. قصره في صور الجزيرة. فطار فرحاً.

« وفيما هو ينتظر دخول ثروتي إلى بلاطه، كان عبيدي ينقلون امتعتي إلى اسطول ينتظرني في المرفأ مع نفر من نبلاء حزبي.

« واقلعنا.

« وفكّر أُناس بالخيانة. فشهدوا عبيدي يرمون أكياس الذهب في البحر. فأدركوا أن العودة إلى بكماليون بدون الذهب خطر على رقابهم. فواصلوا المغامرة.

« وفي قبرص ابصرنا على الشاطئ مئاتِ العذارى يعرضن انفسهن — على عاداتهم هناك — مقابلَ المال الذي يجمع ليشوّق الزوج. كان رجالي اربعةً وثمانين، فأمرت باختطاف أربعٍ وثمانين، غدون فيما بعد حرائر قرطاجة وامهات ابطال العالم.

« وحين أطلَّ هذا الشاطئ البهيّ، وكان لي به سابق معرفة، ألقينا المراسي.

« وابيتُ الا أن أشتري — وهم يضحكون مني — قطعةَ أرض أبسط عليها بِرْصة. أجل جِلْدَ ثور وحسب. فاذا البِرْصة تكبر في سعة ما يمكن ان يصنعه الحِذْق الصوريّ من رقائق لا تعد.

« وتكون قرطاجة.

« المدينة التي سيقال انها اجمل الممالك.

« ولكن هيارباس لا يدرك معنى الاحلام الكبيرة.

« هيارباس الملك، جارنا الذي باعنا الأرض.

« راح يطلب مني خلْع هذا الحداد. كأنّ زوجي لم يكن، وكأنْ ليس في شيمتي الوفاء.

« هو يريدني ملكةً على عرشه أيضاً.

وقاطع الجندي الملكة صارخاً:

ـــ نرفض.

فاكملتْ:

ـــ إن رَفَضْنا احرق هيارباس قرطاجة. وقرطاجة لم تشتدّ ساعداً بعد.

« لسوف تفرض مهابتها يوماً على ابعدَ من نوميديا. أما اليوم...

« ولكن لا تهتمّ. لا تهتم. ودهاء إليسا ما نضب له معين.

« الحياة ؟ لقد اعيتها شرارة خاطرها. وستعيي الموت.

« الموت هذا غالباً ما يكون طريق الحياة.

فصرخ الجندي:

ـــ ما تقولين يا مولاتي ؟

فاجابت:

ـــ عند الصبح اذهب لتبقى قرطاجة.

« لا، لا تجهش هكذا بالبكاء. كن جندياً.

« إنطلقْ إلى القرطاجيين وقل لهم ان ملكتهم بانتظارهم على الاسوار، عند هذه المحرقة، حيث ستقدم لزوجها

بعض القرابين. وان كنت تعرف اهل رفيقك فقل لهم: « إن إليسا، التي اعوزها حنان الاخ، داعبت بيدها جبهة فتاكم وهو جثة ».

مضى الخفير، وقد ادرك ما كان حُلمُ رفيقه: ملكتُهم تضرم بيدها النار، ووسط اللهب تغمد في صدرها السيف.

ويكون وفاءٌ بالزوج وبقاءٌ لقرطاجة.

النفس بعد الموت

على مبعدةِ ستةٍ وثلاثين كيلومتراً من بيروت شمالاً ؟ إذن قبل ثلاثة كيلومترات فقط من جُبيل، وعلى جُرْفٍ صخري هارٍ، يقوم بُرج.

انه بقيةٌ من العصور الوسطى، انيقُ الخطوط، فَعَل فيه الزمن ولكن قليلاً.

هو اليوم بيد علماء الآثار.رمّموه عام ١٩٣٩ وتركوه يطاول الجبل بعنقه العِملاقي الجميل.

كم من بطل من العهد الصليبي فاخر بأنه امتلك هذا البرج ؟ انه لأمر يهم مؤرخي الحروب. ثانويٌّ إذن.

لكن للبرج قصّةً رُويت منذ ثلاثة قرون لشابٍ اسوجي مُوْحَد، راح يُطوِّف في الأرض عَقِبَ فاجعةٍ عصفتْ بِنِياط قلبه.

كان الشاب يتأمل البرجَ بصحبة صبيّ يعرف الانجليزية ويَحْكي لا يكفّ. وفجأة بصرا بطائر كبير ينطلق من على قمّة البرج، فيحسرُ الصبيّ عن رأسه وتروح شفتاه تُغمغِمان.

ــ تصلّي ؟ سأل الأسوجي، ما جرى ؟

فأجاب:

ــ انها عصفورة البرج الزرقاء ! تسكنُه منذ الوف السنين. ولا تطير عنه الا نادراً: كلما عرفت الأرضُ حباً عظيماً !

وبهت الزائر لبداية القصة، ولعل موضوعَها العجَب لامس وتراً في قلبه المحطّم، فسأل الصبي:

ــ كثيرون هنا يقولون قولك ؟

ــ أيّ قول ؟

ــ إن هذا الطائر لا يموت.

ــ ما من طائر هنا، ايها السيّد، إنها عصفورة البرج الزرقاء. وهي خالدة. خالدةٌ لا تموت.

جرى هذا الحديث في أوائل القرن السابعَ عشَر، والحقيقة انه صدى لحكاية نورٍ قديم شعّ أول ما شعَّ في تلك الارجاء، أرجاءِ جبيل المقدسة، ومنها عمّ العالم.

منذ الوف السنين، قال كاهنٌ من جبيل « ان للانسان نفساً وان هذه النفس خالدةٌ لا تموت. وما الموت الا حجاب يفصل. ومن أحبَّ نفساً منتهى الحب هتَك الحجاب وردَّها اليه ».

. ووحدها دون سائر حواضر الدين القديمة، تشددت جبيل في معتقدها الطريف. وقصدَها منذ الألف الرابع، ومن اقاصي الدنيا، اناس موجَعون يستشفون بالإيمان الجديد. جاءها نوميديون وهنود وصينيون وحضارمة وبابليون ومصريون كانوا قد فجعوا بعزيز لهم، ولدٍ أو والد أو حبيبة عمر. ويوم قتَل سيثُ مصر أخاه أوزيريس قصدَتْ إيزيسُ إلى جُبيل، دون سواها، تسترد الحبيب من الموت.

ويقال إن كاهناً في جبيل طلب منها ان تحبَّ الوسيم الغائب منتهى الحبّ، وتذوبَ في الدمع وفاء به، فبكت المصرية النجلاء العينين، بكت حتى لم يبق في مآقيها بَلَل.

ولكنّ ذلك ما كفى.

ورقّ لحالها نهر هناك لُجَينيُّ التدفاق ـــ يسمونه الفيدار ـــ قال لها:

ـــ لا تَهتَمّي، مياهي أقربُ ما يكون إلى دموعك. استعيريها وأوهمي الكاهن أنك بغزارةِ نهرٍ تذرفين الدمع على الحبيب.

وهكذا كان.

سوى أن كاهناً جبيلِيّاً لا يفوته شيء... فهمس في أذنها ان ألفَ موجة من أمواج النهر تساوي دمعةً من دموع إيزيس.

ومضى الفيدار يقدّم من نفسه، ويقدّم بسخاء، حتى خافت إيزيسُ عليه فهتفت:

ـــ ويحك، ستجفّ !

فأجابها:

ـــ ما هم ؟ يكفي أن أساعد حسناء على استرداد حبيبها من الموت.

ولجوابه حنّت مآقيها من جديد، وأُعطيتْ دمعةً ولا كالدموع.

جفّ الفيدار. ولكن حبيب إيزيس عاد إلى الحياة !

وكذلك عاد الاسوجيُّ إلى بلاده بعد أن قُصّت عليه القصة، وهو أقلّ حزناً: أدرك ان التي فقدها ستُرَدّ يوماً اليه.

ان البرج، الذي على مقربة من نهر الفيدار، يبدو حديث البناء نسْبياً. لكن آخر لبناني يعرف أنه إنما نهض على انقاض برج قديم يَرقى إلى ما قبلِ الالف الرابع.

ويتناقلون أنه على قِمّتِهِ كان قد أُقيم مذبحٌ من المرمر الجميل. هو المذبح الخاص بالكاهن الجبيليّ الذي كان أوّل من قال: «إن للانسان نفساً وان النفس خالدةٌ لا تموت».

ويتناقلون أيضاً أنه، منذ فاه الكاهن القديس بالكلمة التي سترِنّ في آذان العصور، شوهدتْ عصفورةٌ زرقاء تطير من على يديه.

هذا البرج في لبنان لن يتهدّم. وكلما فعل فيه الزمن أُعيدَ بناؤُه.

هوميروس الذي من لبنان

ذات صباح من أواخر الشتاء، والربيعُ لمّا يُطِلَّ الا فراشةً وسنونوة، اختلج الماء في نهر الميليس، فاذا بالإله اللجينيّ المنطرحِ بين الحشائش ــ وكلّ نهر عند الاغارقة إله ــ يُتلع عنقَه ويتلفّتْ.

إنها امرأةٌ مثقلةُ الخطى تقترب من ضفته.

ــ من أنتِ ؟ لتَتَعَطّرُ الريحُ لِغمسك فيها هذا القدُّ المشيق.

ــ انا كريتيس، ايها الإله، سيقولون زوراً أنّي صبيةٌ شذّت فهربَتْ إلى ضفافك تخفي ثمرة الغواية.

ـ انتِ إذن حُبلى ؟

ـ كما ترى. لكنني أقسم بالآلهة أنني تزوجتُ والدَ ابني هذا، ليلة سفرته إلى وطنه، بلاد الأرز الذي يجايل الدهر. كانت النجوم جميعاً في عرسنا، ونوتيةٌ حمرُ الوجوه، ضاحكوها فتحوا العالم وجاؤوني بهداياه. سوى أن المركب الذي أقلّ البشريين ابتلعته العاصفة، أما النجوم فبُكمٌ تأبى ان تنطق وتشهد لي. لا، لا تكن كأهل كِيمْ ذويّ، أولئِك الذين غَلُظتْ قلوبهم فلم يصدِّقوا.

وكان جواب الإله اللجيني ابتسامةً بيضاء وموجةً تكسرت عند قدمي الحسناء تلطّف من تقطيب حاجبيها ومن حرارة شُعاعات الشمس.

وهكذا تصادق النهر وكريتيس.

ويوم ستضع ابنها ستسأله:

ـ ما ندعوه ايها النهر ؟

فيقول:

ـ ساعة وُلد لم يَبك... اطلق صوتاً كنغمة من شبّابة قصب أو كبث بلبل، أسر الريح فكفّت عن الجري تصغي. سيكون لقوله أن يبدع دنيا جديدة. تعالي ندعوه باسمٍ كلّه غناء. ما قولك بـ « ميليسيجين ».

ـ ميليسيجين ! إنه أجمل الأسماء. من لي بشاعر يغنيني ؟

ويقال إنها وضعت في ظَمئها إلى سماع الشعر، من الشوق والحرارة، ما جعل الاقحوان الذي على الضِفّة يتجمّع ويزورها رُتولاً رُتولاً. كذلك توقّفت على الأفق جمهرةُ النجوم واخذت تهبط على الطفل حاملةً اغاريد الفلك العظيم.

وكبُرَ الصغير، فطِناً، أنيقَ الخطى، يحِبُّ تسلُّقَ الصخور العالية ولا يأنس الا إلى المستوى الأنوف.

وكان يلازم معلّمَ مدرسة من إزمير يدعى فيميوس.

وما أن يَبلغَ التاسعةَ حتى يُعلن أُمَّه أنه يزمع سفراً، وانه لا يحب شيئاً اكثر من البحر وبلاداً عبره يخيل اليه انه يعرفها، يسكنها « نسل الآلهة » و « أصحاب لغة الآلهة ».

ـ إنها فينيقية ! قالت الأمّ في سرّها، ذاكرةً وطنَ الوالد الذي كان سبب تَعْسِها والهناء.

اما النهر فلم يمانع، اذ سألته أمّ ميليسيجين نُصحاً. ووعدها بأن يُطلق مياهَه ترافق السفينة التي ستُقِلّ الولد وتذكّره بأمه وبوطنها الذي على ثراه رأى النور.

وسافر ميليسيجين... وكان النهر، كُلَّ صباح، يروي للوالدة اللهيف أخبار الرِحلة كما تجيئه بها مياهُه الموزّعة على البحار.

ها هو ميليسيجين في صُور، يَطرَب لسماع الشِعر الذي يُنشَد على ذكر الأبطال العابقة ثيابهم برائحة الأرز والشربين، ثم هو في مصر، في ممفيس نفسها تلميذةِ صيدون، ففي الإيباريه حيث مناجم الذهب، ففي إيطالية ذاتِ النهارات البهيّة والربيع الدائم، ففي اغريقية ذات الجزر الألف التي توجع ربة الجمال.

ولكن النَهر أقبل راكضاً، ذاتَ صباح، وانطرح عند قدمي الأمّ يبكي.

ــ هذه المرّة جئتُ أُمزّق نياطَ قلبك: أندُبي اندبي معي النور في عَيني ميليسيجين.

ــ ماذا ؟ ميليسيجين ولدي أصبح هوميروساً ؟!

ولم تشأ الأمّ أن تعيش بعد أن انطفأ النور في عيني ابنها.

اما النهر فعادَ لا يذكر « الولَد » الا بالاسم الذي كان آخر كلمات كريتيس الحسناء.

ـــ هوميروس ! هوميروس !

هكذا كانت تهتف ازمير يوم قامت بأسرها إلى البحر تستقبل العظيم العائد إلى مسقطِ رأسه.

كانت شهرتُه قد طبّقت الدنيا.

كان قد حَمل بلادَ أُمّه شِعراً إلى العالم، ذاك الذي سيحملها شِعراً إلى العصور.

واستقرّ هوميروس في كيو. وتزوج بنتاً يقال انها تشبه أُمّه. وعرف الهناء العائلي. وكان في كلّ موسم يقوم، والشعب في أثره كأنه عصاه، إلى مدينة من المُدن يغنّي الآلهة والبشر المتعالين إلى المستوى الأنوف. فتُطِلّ المُدن مِن على فمه، الواحدةُ تلو الأخرى، كأنما ترقى وترقى حتى لَتحازي ما في ذهنه من قُبب ومن مطلّات العالمَ الذي تُبدعه اناشيدُه. ويصِف ضربةَ البطل، ودهاءَ العقل، وفضائلَ القلب، حتى لكأن كُلاً مدرسةٌ بذاتها تُلقّن الناسَ كيف تفرُدُ الناس.

وذاتَ مساء، وقد كادت السنونُ تُثقل كاهله، خرج من كِيُو في مركب فينيقي انيق، قاصداً أثينة، فاذا وراءه، وهو لا يدري، مئتا سفينة. هي الإيونية باسرها تُواكبه إلى المدينة التي يُحِبّ. ثم هي مئتا سفينة أخرى تخفّ اليه.

انهم اهل الاتيك جميعاً وفدوا إلى استقباله قادرينَ شرفَ الزيارة.

لكنّ هوميروس استشعر تعباً خانقاً. فطلب ان ينزل إلى ساحل ايوس، الجزيرةِ الصغيرة التي تواجه أثينة. ووسْطَ الأساطيل التي جاءتْهُ بنخبة الشرق والغرب راح يتحدّث إلى رفاقه، زُمَرِ الرعيان والصيادين، يقول: « إنني انوي رحلةً إلى فوق أحمل معي أهلي « نَسْلَ الآلهة » و « اصحابَ لغة الآلهة »، والنهرَ الذي عَطفَ على أُمّي، وأثينة، أثينةَ التي جئتُ أُودّع، والتي ستخلِف بعظمتِها صيدون وصور ».

وسكت صوتُ هوميروس في فمه.

كفَّ عن إسكار الناس ليروح يُسكر العصور.

على عرش روما

في الطريق إلى عكار، على مَبعدةِ ستةٍ وعشرين كيلومتراً أو أزْيَد من طرابلس، يقوم تلٌ وخرائب.

هي أطلال عَرقَه. قيصريَّةُ لبنان. لَعِبَتْ دورها منذُ العهد الفينيقي، وذُكرت في لوحات تلّ العمارنة وفي الرُقُم الأشوريّة. حجّت الدنيا إلى معابدها، آياتِ الفن والدين، وكان لواحدٍ من أبنائها ان يَعتليَ عرش الامبراطورية الرومانية هو وعائلته ومستشاروه اللبنانيون، ويتدبّر، من قصره فيها او من قصره بروما، مقدرات العالم. وقد قيل فيه انه الأطيب والأعلم الأعلم بين الاباطرة جميعاً.

في أول تشرين الأول، عام ٢٠٥ للمسيح، كانت دارةٌ في عَرقه تُذيع البشائر بان جُوليا مَمَّا رُزقت طِفلاً ذَكراً.

وتقول القابلة متنبّئة:

ــ هذا الولد سيَطول بيده النجوم.

فتردّ جوليا مَمَّا متأوّهة:

ــ على أن تكون النجوم من شرف لا من حرب.

وتتلقّى الامُّ دعوةً من روما.

ــ إملأ عينيك، يا الكسيان من مفاتِن لبنان، تهتف به عند الوداع. فقداسَةُ هذا الجبل ستكون زادَك الوحيد في مدينة المجد والفجور.

وفي البحر، عند احتجاب آخر القِمم اللبنانية، يستبدُّ بها الحنين فتقول:

ــ باسمكَ أُقسِم انك إن رجعتَ إلى لبنان بنيتَ هيكلاً للشمس لا اجملَ منه الا هو.

في ١١ آذار عام ٢٢٢، رَقِيَ اللبنانيُّ عرشَ رومة باسم الكسندروس ساويروس. وكانت جدّتُه جوليا ميزا وأمّه جوليا ممّا اثنتين من جولياتٍ اربع غيّرن نظرة رومة إلى المرأة، ونظرةَ العالم.

الأَربع من عندنا، من عائلة الكاهن الأكبر خادمة معبد

الشمس في المقاطعة التي تدعى « فينيقية اللبنانية ». حَكمن رومة، واعتززن برومة، وخلعن على رومة إلى الأبد ما سوف تخلعه الميدتشيّاتُ على باريس من عظمةٍ وفخفخة أعياد وسياسة امبراطورية ودَهاء وحُبّ وطيشٍ واخلاص. ومِنْهُنّ مَنْ فُقن ملكاتِ باريس جميعاً بما تركنه من شهرة في امتشاق السيف بين الرجال وعلى رأس الرجال.

يقول المؤرخ جان بيلوْن إن الكسندروس، عندما رَقِيَ العرش، لم يكن على التمام « نسراً لبنانياً ».

الا أنّه، منذ فتوّته، كان يُعَدّ بين كبار المثقّفين. وككل لبناني اتقن الآرامية، لسانَ لبنان، واللاتينيةَ، لسان الدولة، والاغريقية خصوصاً، اداة الحضارة غَيْرَ منازَعة. وكانت جدّتُه وامّه قد سهرتا على بابه تنتقيان من تدفاق الزوار كلَّ شريف أو كل باسل. وسيمتدحه آباء الكنيسة بقولهم « ان سلامة الجِسم والخُلق عند هذا الوثني كانت رأس الفضائل ».

عبٌّ من علومٍ وفلسفة ومن دينٍ انتقائيّ استخلصه من المعتقدات الرفيعة.

كانت الرئاسة النسوية في البلاط للجدّة جوليا ميزا. امرأةٌ فريدة الشخصية فريدة الدهاء. على انها اصطدمتْ

وبنتَها منذ الساعة الاولى بلبنانيّ آخر يُضارعهما شخصية ويفوقهما عبقرية. انه المشترع أُولبيان. قدِم من مدرسة بيروت تواكبه شهرةٌ طبّقت العالم ليتسلم ما يُسمّى اليوم منصِبَ كبير الوزراء.

عام ٢٢٤ أصدر أُولبيان بوجه الجوليتين قانوناً يقلّم من اظافرهما. الا انهما ستتغلبان وإن بثمن الدم.

تُوفيّت الجدّة الداهية. فاغتبط انصار أُولبيان. لكن البنتَ افتتحت عهدَها بأن أقامت لأمّها تكريماً عالمياً وسمّت باسمها فرقة من الجيش.

وعندنا ايقونات تصوّر جوليا ممّا معبودةَ الجماهير لخلُقيتها المتشددة والناعمة معاً.

وتوطّد عهدُ الكسندروس ساويروس.

واحبّه الناس في كل مكان.

كان الامبراطور، من وقت الى آخر، يقصد معتزَلاً يسامر فيه العظامَ المفضلين على البشرية: فلاسفةً ورجالَ دولة ومؤسسي اديان، يقدرون وحدهم ان يهدّئوا من كَلَفه بالمُطلق. أورفه، ابولونيوس التيّاني، ابراهيم ويسوع الذي لم يبق من إمكانٍ لتجاهله.

ويحفر فوق رتاجاتِ قصوره الكلمة الخالدة: « لا تفعل بالغير ما لا تريد ان يفعله الغير بك ».

ورُغم اعتداءات فردية تنطوي أحياناً على الهول، لم يُعرف عهدٌ أوفر تسامحاً أو أجمعُ على قَدْر الفضائل. ويعمل الامبراطور وامُّه معاً للعلم. فتستقبل هي في انطاكية العلاّمة اوريجين استقبال الملوك، ويكلّف هو جوليوس الإفريقي اقامةَ مكتبةٍ في رومة وتأليفَ دائرة معارف. ويعتز كثيراً بان اللاهوتي إيبوليت قَدّم إلى الامبراطورة الأمّ كتابَه عن « القيامة ».

البطانة والوزارة من أساتذة مدرسة بيروت العالميين. انهم هناك جميعهم تقريباً: بَبّنيان، بَوْلس، أُولبيان، مودستين. الثلاثة الاولون لبنانيون واعظمهم اولبيان، الرجل الثاني في الامبراطورية. كانت جوليا مَمّا لا تزال تكرهه بسبب تشدّده بأنْ لا قِبَلَ للمرأة بالحكم. كان عليها ان تقول له انها قوية. أُولبيان هو المدني الوحيد بين جمهرة عسكريين تحيط بالامبراطور، فَسَهُلَت المؤامرة. واشترك فيها حتى زميلاه الوزيران. ولكن ردّة أُولبيان جاءت فورية عنيفة: امر بقتل وزراء دونما محاكمة. فهتفت جوليا مَمّا: « أُولبيان انتهى ». هُم الجند يلحقون به إلى مقاصير

الامبراطور، والكسندروس ساويروس ينزع الارجوان عن كتفيه يلبسه وزيره، علّ الهائجين يتحرّمون من مس شعائر المُلْك. الا أن الجند لم يبالوا. قتلوا أُولبيان بينما كان الكسندروس يردّد:

ـــ فَقْدُ نصفِ الامبراطورية ولا الاعتداء على عظيم.

وتكون تعاليم زردشت أدخلت في روع أردشير انه سيملك على آسية. فيقصده الكسندروس ساويروس في جيش تروح أُمّه تُضخّمه على الطريق. ويتفشّى الطاعون في الجند. ويصاب الامبراطور. الا ان مناخ لبنان في عَرقِه يجترح الأُعجوبة. ويصمدون. ويسأم الفارسي مواصلةَ حرب مُفنية. وتطير البشائر إلى رومة تُعلن وقف العدوّ. ويضع الامبراطور خطةً للسلم اصلاحية، نتيجةَ ما وصلت اليه بيروت من وعْي لحقوق الانسان وللعدالة الاجتماعية.

لكن الثورة تنشب في الطرف الآخر من العالم. فيطير الكسندروس وأمّه إلى غوليا. ويعمل بروح مسالمة. فيعرض الصلح على الجرمانيين، فيرفضونه، فتضعف معنويات الجيش، فينادون بامبراطور جديد، هو جنديّ من تراقية أمّي جِلْف كلُّ حسناته انه عملاق الجثّة. وتكون محاكماتٌ ومشاهدُ فاجعة يتغلّب فيها المظهر: التافه العملاقُ الجثة

يُفَضَّل على العظيم الذي غزا الدنيا بمناقبه.

هو الكسندروس الآن يضمّ إلى صدره، في وَداع مؤثر ابكى حتى الجند الثائرين، تلك التي أبتْ الا أن ترافقه في الطفولة وفي الشباب، في القصور وفي ساحات القتال، في الحياة وفي الموت. قتلوهما معاً في ١٩ آذار عام ٢٣٥ .وقتلوهما مرة أخرى عندما راحوا يشيّعون انه، في اثناء وداعه لها، تلك التي احبته كما ولا أحد، اتّهمها بان بخلها تسبّب في موته.

ولكنهم، بعد انقضاء قرن، احتفلوا بذكرى الكسندروس ساويروس وجوليا ممّا، في أرجاء الامبراطورية جميعاً، بالعابٍ واعياد فوق الوصف. وفي عهد غاليان رفعوا الكسندروس ساويروس إلى مصاف الآلهة.

من عَرْقه بلبنان، إلى عرش رومة، إلى ساحاتِ العالم جميعاً، إلى الألوهة، مشى هذا اللبنانيّ وامّه — على ضعْفهما البشريِ احياناً — مرفوعَيٌ الرأس.

وكان ذلك ايامَ عاصمةُ الامبراطورية شبهُ لبنانيةٍ، بعاهلها وملكاتها ووزرائها، بعظمتها وجنونها.

ويتناقلون عندنا أنه، يوم قُتل الامبراطور وأمّه، سقطَتْ

قبّةٌ من قصره في عَرْقه وسُمعت الرجّةُ عنيفةً في هيكل الشمس، الذي كان قد بناه وفاءً لِنَذْر. فهتف الكاهن بالمؤمنين: « يخيّل إليّ أنّ المجد والفضيلة قلاّ في الارض ».

يا حجاراً خوافِتَ اللون في لبنان
قُصّي كِتابَ عهدٍ نضير.

قُبلة أفروديت

نحنُ على ضفة اليَمّونة، الباعدةِ سبعةً وعشرين كيلومتراً عن بعلبك.

بحيرةٌ معلقةٌ على خصر لبنان في علو ١٣٧٥ متراً، تتغذّى من ينابيع شتى كلُّها مُتفجّرٌ من الصخر واكبرُها نبع الأربعين.

بهذه البحيرة ربَطَ الأغارقةُ حادثةً وقعت لافروديت، ربةِ الجمال، في أروع اسطورة اطلعتْها مخيلةُ شعرائهم. فكلما جعّدت الريح ماءَ بحيرتنا الجميلة استعاد اللبنانيّ المثقّف قصةَ تيفيا بعذوبتها وهولها الفريدين. واذا الخوف

وقَذْفُ الصواعق وكبّ الجبال على الجبال تغزو جنبات باله ويخيّل اليه ان امواج اليَمّونة جُنّ جنونها وكبُرتْ، حتى لكأنها أواذيُّ الاوقيانوس في واحدة الليالي العاصفة. وتظلّ هكذا إلى ان تُطلّ من البعيد البعيد شعّةُ شمس صبيّة تأمر الاوقيانوس أنْ اهدأ، فيهدأ.

كان تيفيا ابناً للارض عجيباً. حبلت به ولم يمسسها بشر أو إله، وعهدت بتربيته إلى تنّين. إنه مخلوقٌ بين الانسان والسَبُع. يفوق حجماً وقوةً ابناءَ غايا جميعاً. اكبرُ من جبل. ولطالما صدَم رأسه إحدى النُجيمَات ففتّتها. إنْ فتح ذراعيه حمَلَ الشرق باليُمنى، وباليُسرى خَمشَ وجه الغرب. اصابعه مئة، كلٌّ منها رأسُ تنّين. وهو من وسطه فما دون مغلّفٌ بالافاعي. جِسمهُ مجنّح ونواظرُهُ لَهب...

وفي الحرب التي نشِبت بين الارض والسماء ــ تلك التي ستدور دوائرها على الارض ــ ما كاد تيفيا هذا يُطلُّ على الساحة حتى خافه الآلهة وأركنوا إلى الفرار، مختبئين تباعاً على الطريق بين اليونان ومصر، وقد تبدّل كلٌّ حيواناً أليفاً أو سمكةً أو طائراً خوف ان يعرفه تيفيا فيقضي عليه. تبدّل ابولون صقراً، وهرمس كلباً، وديونيزوس كبشاً، وهيفايستوس ثوراً. أما أفروديت، ولم تكن قد تسمّت بعد

ربة الجمال، فقد رمت بنفسها في بحيرة اليمّونة علّها تتحوّل إلى سمكة. ولم يصمد في وجه الطيطن العملاق سوى أثِنا ربة الحكمة وزوش كبيرِ الآلهة.

راح زوش يقذف تيفيا بصواعق يديه. حتى اذا التحما صدراً لصدر كانت الدفعة تُلقي بهما من صعيد مصر إلى صحراء البتراء ومن صحراء البتراء إلى صعيد مصر. اخيراً ضرب زوش تيفيا بمعزفه الفولاذيّ فأوقعه على الأرض. إلا ان الطيطن استقوى بأمّه فإذا هو جريحٌ ليس إلا. ارتدّ على زوش وانتزع من يده المِعزف، وبضربة كبَّ كبير الآلهة على وجهه ثم قطع أطرافَ عضلاته وحمله على ظهره إلى كيليكية حيث حبَسه في المغارة الكُورسيّة. أما اطراف العضلات فخبّأها في جلد دبّ وضعه في حراسة التنّينة دلفينا.

من أنقذ زوش ؟ أيّ داهية قَدِر ان يعرف مكان التنّينة فقام يُعمل فيها رُمحه الطويل ويردّ على كبير الآلهة اطراف عضلاته ؟

ما لك الآن ولهذا. وحسبك ان تعرف ان زوش استردّ حريته وقواه وانطلق إلى السماء، وأسرج خيول عربته المجنّحة وراح يضرب الطيطن بصواعق ولا أشدّ.

وتوقّف تيفيا على جبل نيزا يُنعش نفسه بأكل ثمرة مسحورة من تلك التي تحملها اشجار الجبل. فلحق به زوش. فهرب. حتى اذا انتهيا إلى تراقية شرع تيفيا يسلخ الجبال عن جلد أمّه ويضرب بها زوش، فيردّها عليه كبيرُ الآلهة مفتّتةً ممزوجة بالحُمم. ولقد دُعي جبل ايموس بهذا الاسم ــ ومعناه بالاغريقية الدم ــ لانه انما تكوّن من نقطة دمٍ انحدرتْ من بعضِ جراح زوش. واخيراً، فيما الطيطن يجتاز صِقليّة منسحباً، قذفه زوش بجبل إتْنا فغيّبه إلى الابد. وما الحمم التي يُطلقها هذا البركان دوماً الا بعضٌ مما يبصقه الطيطن او مما تبقّى من صواعق كبير الآلهة.

هكذا انتهت الحرب بين الطياطين وزوش. وكان على هذا ان يعود الى رفاقه ورفيقاته، اولئك الذين حوّلهم الخوف إلى حيواناتٍ أليفة أو أسماكٍ أو أطيار، ويردّهم إلى طبيعتهم الالهيّة الأولى.

لكنه لم يتسنّ له ذلك على التمام، لانهم انما كان قد طال عليهم الأمد لطول أمد الحرب بين زوش وتيفيا. فبقي في إله الشعر من عِنفوان العقاب، وفي إله البلاغة من نباح الكلب وفي إله الخمر من قرني الكبِش، وفي إله النار من

خُوار الثور. اما افروديت فكان شأنُها آخر: عندما غطست في بحيرة اليمّونة قَصْد ان تتحوّل إلى سمكة، أُعجِبتْ بها البحيرةُ ورقّت لجمالها مدركةً ان ضيفتها إن تلبّست سمكة إلى أمد فقد يترك ذلك على أناقتها وبضاضة جسمها ما يشوب، فكانت كلّ يوم ترفعها إلى الشاطئ، تغسلها من سمكيّتها وتردّها إلهة سوية. حتى اذا بصرت بالطيطن المَخيف يمُرُّ حيالَ حيال ضمّتها اليها من جديد، سمكةً اجمل السمكات.

وكانت البحيرة من وقت الى آخر تحدّث افروديت عن ابنِ ملكٍ من لبنان، فتى فتيانٍ بهيِّ الطلعة مفتولِ الزند لا يقدر سواه أن يقنص التنانين. فتتكابر افروديت ولا تخوض في حديثه أو تسألها عن اسمه.

وذات يوم، فيما هي تتجول وحدها بعيداً عن البحيرة، ضلّت طريق العودة. وانتهى بها المطاف إلى أحد ينابيع العاصي فاذا النهر يدعوها لاهثاً مستغيثاً. حتى اذا اقتربت منه قال انه في حاجة إلى أن يسرّي عن نفسه بأن يكشف لها، هي بالذات، عن سرٍّ لا يجوز ان تسمعه الا إلهةٌ محضُ إلهة.

ـــ وما هذا السرّ ؟ سألت افروديت.

قال النهر:

ـــ جاءتني موجةٌ من موجاتي، من البعيد البعيد، من مصبّها عند البحر تحت كيليكية، تخبرني بأن أطراف عضلات زوش مخبوءة هناك، وأنّها في جلد دب في حراسة التنينة دلفينا.

وعادت افروديت ركضاً إلى صديقتها البحيرة تسألها، هذه المرّة، عن ابن الملك فتي الفتيان البهيّ الطلعة المفتول الزند من لا يقدر سواه أن يَقْنص التنانين. فهتفت البحيرة فرحة: انه قدموس ابن الملك أغنّار. وما هي حتى جمعتها به. ومقابل وعد بقبلة من افروديت تعهد قدموس بأن يقتل التّنينة دلفينا ويردّ على زوش اطراف عضلاته.

هذه هي القصّة عن نجاة كبير الآلهة وانتصاره على الطياطين ابناء الأرض.

ويوم يُرسل زوش هيرا، زوجه، وأثِنا، ربةَ الحكمة، وافروديت إلى باريس ابن الملك فريام، ليفصل في مَن منهن هي اجمل، يتشمّم باريس في هيرا واثنا نَفَساً غير محض إلهي، ولا يجد نَفَساً تامّ الألوهة الا في افروديت. فيهتف، وقد رمى اليها بالتفّاحة:

ـــ إلى ربة الجمال !

ويخبرك سُكان اليمّونة ان امواج بحيرتهم اختلجت

لفورها عند صدور الحكم من فم باريس، وهم الذين ما شكّوا يوماً في صحّة عدالته ما دام أنهم وحدَهم شَهِدوا افروديت عارية...

وتخبرهم اليمّونة بما كانت تعمله لافروديت. وتقول مزهوّة:

ــ سترون انه وفاءً بصنيعي ستُؤثر ربّة الجمال سُكنى لبنان على سكنى الأولمب.

ولكن متخابثاً وسيم الطلعة يردّ قائلاً:

ــ بل ستؤثر افروديت سكنى لبنان لتفتش عن قبلةٍ كالتي ذاقتها هنا من فَمِ قدموس...

يرفع الأرض إلى السماء

في عشية من عشايا الربيع كان راهبٌ وشاعر مكبَّين على نصّ يونانيّ هو « مدائح العذراء » او، على الاشهَر، « المدائح » وكفى. قصائدُ على كلّ شفة ينشدها ابناء الليتورجية البيزنطية كلَّ مساءِ جُمُعة من آونة الصيام.

ــ تعرفُ يا أبت ؟ انني أَعُدُّ المدائحَ اجملَ شعر أطلعه قلم.

وتتهلّل اسارير الراهب. فيكمل الشاعر:

ــ في ذهني، وأنا أُطلق هذا الحكم، أروعُ تُحَف الدنيا: فَقَراتُ الحب الناريّة الباقية لنا من سافو شاعرةِ

شاعراتِ الغزل، وجوقات أيسخيلوس التي تُسمع انين الانسان ولو من تحت صخرة القدر، وبعضُ مزامير داود وهي آية الايمان والجمال سَلكت النجوم كلماتٍ ورفعتها إلى عتبات عرش الله، « ونشيد الانشاد » المعزوّ إلى سليمان وهو حب مَلكٍ لفتاة قرويّة رفع القلب الساذج إلى قوة خمرة تسكر رَجُل العقل، و « كوميديا » دنته وهي التي، لبهائها، أضافت اليها الأجيالُ نَعْتَ « الإلهيّة ». اخصّ منها لا « الجحيم » أو فصلاً منه بالذات بل « الفردوس » حيث تقودك يدُ بياتريس إلى وجهٍ فوقَ ما تتحمل العيون أو تتفجّر له فَرحَةُ القلوب. وفي ذهني كذلك غزلُ بترارك جميعاً. هذا عند الأغارقة والعبران والطليان. ومن الانكليز والألمان في ذهني تُحَفٌ لشكسبير لا من « السونيات » وحسب بل من « الملك لير » أو من « العاصفة » و « حلم ليلة صيف »، القصتين الاثيريّتين الدائرتين على شفا الوجود واللاوجود، ثم من « فوست » الرائعة التي على الانسان يتخطّى مقدورَه، وقد بقي غوته يُعمل فيها قلمَه مدة ستين سنة. واخيراً في ذهني من فرنسة اياتٌ براتُها، كما بَرْدُ الذهب أو حفُ الماس، انامـلُ ملارمـه وفاليـــري: « هيروديادة »، « الخطى »، « اغنية نرسيس ». ومع هذا تراني عليها جميعاً أوْثر « المدائح ». احفظها عن ظهر

قلب بالترجمة العربية واتهجّأها مُستمتعاً بنغماتها الأنيقة في الأصل الأغريقي، واحياناً احاول تلمّسَها بقليلٍ ما اعرف من الروسيّة. واني لو دَريت ان لها ترجمة عند الهنود لما ترددتُ في معالجة لغتهم أتبيّن كيف أُفرغت آيةُ الطُهر في لسان فلميكي وقليداسا.

وسكت الشاعر قليلاً ثم استطرد:

ــ شعراء الدنيا وموسيقيّوها جميعاً توسلوا إلى القارئ بالحُزن، أو بالاحرى بطعْمٍ من الحزن بعينه هو الكآبة، ليحرّكوا نفسه اليابسة. حتى في المسرّة تسمعُهم يئنّون. الجرح عندهم وسيلة، اما الفرح ــ الفرح مباشرة ــ فَقَلَّ مِنْ اهل القلم او الوتر مَن بنى به وأعلى. بيد أن الشاعر الآلهي، صاحب « المدائح »، رَفَع من الفرح كاتدرائيةَ شعرٍ تكاد تحاكي « أيا صُوفيا » وتشيلُ بها على جناحين. كلُّ ذلك إكراماً للتي، على تواضعها، قالت ذاتَ يوم: « ها منذ الآن تُمجِّدني كل الأُمم ».

قال الراهب، وهو عالِمٌ هِيلّيني من طراز جلل:

ــ ولكن هل تعرف، يا صديقي، ما علاقة « المدائح » بلبنان ؟

وتهيّبه الشاعرُ للسؤال. فاكمل الكاهن:

ــ إسمع. فيما أنا أنقّب انتهيتُ إلى ان « المدائح » هي من صنع رومانوس.

فيقول الشاعر:

ــ ماذا ! رومانوس، رومانوس المرنِّم، ابنُ المقاطعة المعروفة بـ « فينيقية اللبنانية » وتلميذُ مدرسة بيروت، هو صاحبُ « المدائح » ؟

ــ نعم، قال الراهبُ العالم، هو صاحب « المدائح ». وما أدري أفي بيروت وضَعَها ام في القسطنطينية. لكنني املك الحجّة المادية على انها له. كشفتُ حروف اسمِه مبثوثة في مستهلّ الكلمات الاولى من مقطوعات نشيدِه.

هذا ما دار في تلك العَشيّة بين الصديقين الكَلِفين بالادب الاغريقي. وكان ذلك في دير من اديار الرهبنة الشويرية في الجبل.

كرّت الايام.

واذا بك تجد الصديقين في صيدون يحجّان آثار المجد القديم. حتى اذا انتهيا إلى تلّة المُوركس ــ وهي تتمةٌ للقلعة ترتفع إلى اربعين متراً في مئة طولاً، كُلّها من الموادّ

التي كان الصيادنة يستخرجون منها صباغ الارجوان ــ قال الشاعر:

ــ هذه التلّة، يا أبتِ، تردّني إلى شِعر « المدائح ».

فيسكت الراهب غير متبيّن أيّة وشيجة تشدُّ شاعرَ العذراء إلى تلّة بعينها ترقى إلى عهد وثني.

ويستأنف الصديقان الرِحلةَ إلى الجنوب. وفيما السيارة تنهب الأرض لاهثة، والزمانُ يطول، والشاعر لا يحير، وهو يعلم ان الراهب العالِم ينتظر شرحاً، اطلّت صور.

ــ هذه اخيراً بطلة المدن، يهتف الشاعر: الكلامُ عليها ما له نهاية. فلْنتوقَّفْ منها عند أشتات اسطورة بالذات كادت الآن تلفّنا كأنها ريح. أكيدٌ انها سَحَرتْ رومانوس فاختارها من بين الالوف. انها اسطورة تيروس، الحسناء التي باسمها تسمت المدينة. كانت تيروس واحدةً من بنات الماء الفينيقيات. اول صدى لقصتها تجده عند المؤرخ بولوكس في الكتاب الاول، الصفحة الخامسة والاربعين. ثم يتكاثر ذكرها عند الاقدمين. قالوا: كانت تيروس تتنزه على سِيف البحر فبصر بها الإله ملكرت، واذا بكلبها مقبل وقد عضّت نواجذُه على حيوان بحريّ مصدّف يقطر منه دمٌ ذو حمرة تأخذ بالألباب. فالتفتت تيروس إلى إله البطولة

وقالت: اكون لك ان صبغتَ لي بهذا الأحمر البهي ثوباً أخْطِرُ به بين الآلهة.

وأقسم ملكرت ليفعلنّ.

وراح رجالُه، بحّارة صور الشُجعان، يغوصون في اليمّ مواجهين الف خطر ومنقّبين عن الحيوان المصدّف النادر. انه الموركْس. دعي الصباغُ الذي استُخرج منه ارجوانا او برفيرا. ثم عمّت الكلمة حتى باتت تُطلَق على ثوب العاهل فلا يقال: لبس الملك مطرفا مصبوغاً بالبرفير وانما لبس الملك البرفير. بلى منذ الكلمة التي تحدّت بطولة البطل وقَسَمه بأن يستجيب للتحدّي، دشن أجدادُنا تمرّسهم بأخطار البحر: بدأوا يتعرفون إليه، في قعره وابعاده، في هوله وعجائبه. وكان ان ولدت المغامرة التي افرغت البحر من أُلوهته، وراح غزليّو بلادنا يتغنون بالموركسة. وبعد ألوف السنين كان رومانوس يتمشّى تحت الاعمدة المشيقة من معاهد بيروت، وهي التي كانت تمُتُّ بنسب إلى اعمدة بعلبك، يدرس ولا بد في سنْخَني أتن، المؤرّخِ البيروتي، اساطير جبيل وصيدون وصور. ويكون ذهنه منشغلاً بنشيد للعذراء يريده لا يعلو عليه شِعر، لا في الوثنية ولا في المسيحيّة. حتى اذا انتهى إلى اسطورة

تيروس التمع له خاطرٌ شهم، هو أن يجد في الموركسة رمزاً لاحشاء العذراء. الموركسة، قال، خَلَعَتْ على تيروس ثوباً تخطر به بين الآلهة، ومريمُ خلعتْ على الله جسماً يخطر به بين البشر. هي الوثنية بأسرها تتجمّع في كلمة وتقدّم نفسها هدية إلى الايمان. وهكذا هتف رومانوس للعذراء، مُطلعاً أجمل بيت في المدائح:

ــ افرحي، يا موركسةً منها صُبـغ البرفيـرُ لمـلك المجد ! ».

عظيم العظماء

« في أوائل القرن الثامن، كان القاطنون في حيّ بعينه من بعلبك، ممّن تقوم بيوتُهم حول الساحة ــ وهي بهذا الاسم وان لم تكن تزيد على تسع قصبات في ثمان ــ يُبكّرون صباحاً إلى احتلال الشبابيك.

وكان أناسٌ من الاحياء الأُخرى يستضيفونهم لا لشيء الا ليستمتعوا معهم بالرؤية.

وعند بزوغ الشمس تماماً، او بعيدَه بقليل، تأخذ الرؤوس تتحرك خلف الشعْريات.

انهم الحضور اكتملوا.

وعمّا قريب سيصل المُنتظر.

وتكون العجائز قد كَنسْنَ الساحةَ من ورقةٍ حَملتها الريح أو من فُتات خبز وقشرة بصل تركهما مكارِيٌّ تعشّى تحت حِنْيَة. اذ ينبغي ان يبقى المكانُ نظيفاً لكي لا تقع عينا القادم على شيء يكدّر.

وما هي حتى ينفجرَ من احد الازقّة بعضُ الصبية، ويلاقيهم ولد من هنا وآخر من هناك.
وتهدأُ الجَلَبَة.

ويروحون، الواحدُ تلو الآخر، يتوجهون إلى جهةٍ بالذات وقد ترصّنوا وخفتت الاصوات.

أما الرؤوس التي في الشبابيك خلف الشَعْريّات فتتكاثر. ويُسمع همْس:

ــ عبد الرحمن ! وصل عبد الرحمن !!

انه هو أيضاً ولد. ولدٌ مثلُ هؤلاء، في الحاديةَ عشْرة لا تزيد.

ــ تلعبون ؟ يقول لهم.

فيهتف واحد:

ــ لا يا عبدَ الرحمن. اليوم في حَيّ الهياكل ميت. وعما قريب سيخرجون بنعشه.

ــ ما هَمّ، يجيب عبدُ الرحمن، آباؤنا يؤاسون. اما نحن فقد جئنا لنلهو.

ها هو انيق الاشارة يصفّق فيطيعون: يَقسمهم ثلاث فرق، يَركض أمامهم، يبثّ بعضاً في زاوية وآخرين تحت شُرْفة، يَصْفِر، يبعثُهم، يجيء بهم، واخيراً يُعلن غلَبَة الغالبين. ويحاول بعضهم اعتراضاً، فيبتسم له هو، فيختنق الاعتراض.

كل هذا بحركة ملمومة: لا يَعنُف، لا يبالغ، لا يرفع صوتاً، وله ضِحكة ولا أوقع، تُشجّع أبداً وتقرّب بين المتخاصمين.

ــ أسكُتُ إكراماً لعبد الرحمن، يقول واحدٌ لمشاكس نال منه.

ويكونون قد تَعِبوا. فيقتعدون إفريزاً وهو على رأسهم في الوسَط. ثم متى شرع في الحديث يرُوح الأبعدون يتركون الإفريز شيئاً فشيئاً حتى ليصبحون بين يديه على الأرض في حلقة رحبة.

ـــ كان عليك ان تسكت، يا جِرْيِس. إن محموداً مُحقّ. لقد ظَلَمْت.

فيسأله واحد:

ـــ ما معنى « ظلمت » ؟ كلمة أُخرى جديدة. من المُصحف ولا بدّ. لم نصل بعد إلى كتاب الله.

ـــ تمييزُ الظُلم من العدل، يُردّ عبدُ الرحمن، يكون فينا منذ الطفولة. كذلك تمييزُ القبح من الجمال. نحن اليوم كبار، بعضنا في الثانيةَ عشرة.

ويسأله سائل:

ـــ حقاً قُلتَ امس إنه كان عليّ ان لا أضرب عُمَر ؟ كان عُمَرُ قد ضربني.

ـــ إضربْه، يردُّ عبد الرحمن، حَقُك هذا. انه يُسمّى عدلاً. ولكن بامكانك وقوف الموقف الاجمل. انظر إلى هذه الاعمدة. أتظن ان في الدنيا اروع ؟

فيتطلّعون ! فاذا الاعين مسمّرة على هيكل جوبتير وقد راحت شَمْسُ الصباح تواجه منه جانباً وتبقي آخر في الظل، فيبدي بهاء غير معتاد.

فيكمّل عبد الرحمن:

ـــ بلى أنْ تَسكُتَ عن المسيء أحسن. معاقبته عدلٌ وهذا محبّة. والمحبة فوق العدل.

فتموج الرؤوس خلف الشَعْريات استحساناً، وتُسمع كلماتُ إعجاب، فيُهسهس واحد:

ـــ بالله عليكم لا ترفعوا الصوت. ان درى بنا أخذهم ومضى.

ويسأله صبيٌّ أكبر منه:

ـــ وعدتّنا منذ اسبوعين بنقد الحكاية التي قَصّها أبو صلاح.

ـــ صحيح صحيح، يقول عبدُ الرحمن، لقد اعجبني أبو صلاح. لكنه جعل الشيخ زين العابدين، بعد أن انتصر على أعدائه، يقطع شجرهم إثاراً لابنه القتيل. ما ذنب الشجر ؟ كانت واحدته تظلل ابنه وهو في قيد الحياة. وزينُ العابدين ؟ بلى كان بطلاً. ضرباتُ سيفه تأخذ بالألباب. إلا أنه رضي بأن يواصل جندُه تسديدَ السهام إلى عدوه بعد أن أدّرع عدُّوه باولاده. هذا ليس في الانسان.

فاعترض احد الصبية:

ـــ ما تقول، يا عبد الرحمن ؟ لو أنه كفّ عنهم لكانت النجدة وصلت إليهم في حينها، وغُلِب زينُ العابدين.

ــ فلْيُغلب، ردّ عبد الرحمن. على المرء أحياناً أن يؤثر الانكسار. رب انكسار اجملُ من ظَفَر.

فتهتف امرأةٌ من أحد الشبابيك:

ــ سلمَ فَمُك.

فيتطلّع، فاذا عشراتُ الرؤوس قد أطلّتْ، فينهض، ويغمُز الصبية، وينطلقون.

ذات يوم من عام ٧٢١، وكان قد كبُرَ سنتين، جمعهم في الساحة وراح يودّعهم:

ــ الليلة رأيتُ في منامي رؤيا جميلة. قال تركت بعلبك. وقال أنا في دمشق أخطب في المسجد. ثم أنا مرة أخرى في لبنان، في بيروت، يجيئني اناس يستفتونني، من الشام، من المغرب، من الهند، من بلاد تدعى الأندلس. اسمٌ جديد على الدنيا. اضغاث احلام... اما تظنّون ؟ وما همّ. فلنكمل. قال إنني أحببتُ اهلَ بيروت واهلَ الجبل. ومن أجلهم رفعتُ الصوت على الظلم بوجه اكبر ملك في الدنيا لان وُلاته جاروا على لبنان.

وسكت الصبية. وكانت الدموع تَطفِر من الأعين.

فأكمل عبد الرحمن:

ـــ انه حُلْم... حلمٌ ليس الا... على أيّ حال انا ذاهب غداً إلى دمشق. وقد اموت فيها، وقد أموت في سواها من بلاد الله، لكنني أريدكم إلى شيء: إن صار واحدكم موسراً فليتصدّق على رفاتي ولينقلْه إلى لبنان.

قالها مُغلِّفاً حزْنه بالضَحِك.

في اليوم التالي كانت دمشق بأسرها قد خرجت إلى الطرقات تستقبل ولداً غير عادي يقال له « عبد الرحمن الاوزاعي ».

* * *

هكذا قصّ قصة الإمام العظيم في حداثته راهبٌ من غزير كان يزور مع تلامذته مسجداً في ظاهر بيروت راحت أرضنا بسببه تعتزّ بأنها تضم رفاتاً فريداً. رفاتَ من قيل فيه: « كان الإنسانَ الكامل، أعلمَ علماء عصره وأشرفَ شرفاءِ عصره ».

يوم زار يسوع لبنان

مرةً في حياته الزمنية تركَ وطَنه الارضيّ.

وكانت ليجيء إلى لبنان،

ولكنْ لماذا لبنان ؟

ليس عند مؤرخه متّى جواب.

وفي مرقس نراه يطلب ان « لا يَعْلم به أحد ».

تراه كان تعِباً فجاء إلى أرضنا ينتجع الراحة ؟

لكم يطيب لنا أن تكون أرضُنا بدّدتْ بعضاً من تجعدات على جبينه.

منذُ متى تراه يعرف لبنان ؟

أواه ! ان ذلك لمتقادمٌ في الذاكرة:

انه لطفل يصغي في الهيكل إلى قارئ الكتاب:

أرزة في لبنان،
شامخةُ القَوام،
عظمتها المياه،
والقمرُ رفعها،
أنهارُها جرت
من حول مغرسها،
ومجاريها أرسلتها الى كل أشجار الصحراء...
في اغصانها عشَّشت كل طيور السماء.
وتحت فروعها وُلدت كل السباع.
وفي ظلها سكنت كل الامم..
السروُ لم يماثل أغصانها.
والدّلبُ لم يكن كفروعها.
وكل شجرة في جنة الله لم تضارعْها بهجة...
فغارت منها كل أشجار عدْن،
تلك التي في جنة الله.

ويصغي:
فاغيةٌ مع ناردين،
ناردينٌ وزعفران،
قَصَبٌ ودار صيني،

مع كل شجر اللُبان.
مُرٌّ وعود،
مع أفخر الأُطياب،
عينُ جنّات،
وبئرُ ماء،
وأنهارٌ من لبنان.

وما لبنان ؟

أكثرُ من لفظةٍ حلوة يجعلها الكتابُ صِنوةَ البهاء.

أكثرُ من منظر يلتفت اليه هو من الجليل، فاذا العين سُكنى لزهر وشربين ولبياضٍ على القِمَم.

أكثرُ من ريح ليّنة تُداعب وجهه فيغنيّها:

هُبي، يا شَمال، ويا جَنوب، انسيمي.
من رأس أمانه،
من رأس سنير وحرمون،
من مرابض الاسود،
من جبال النمور،
من لبنان.

ويروح يشعر حيال لبنان بما هو فوقَ عهده الاول بكلمة الآب، وفوقَ قرّة العين بنسَمٍ ومنظر بهيج.

ماذا ! تراه لمس يوماً ارض لبنان ؟ أو استعَدّ للتماسّ بينه وبين سلسلتي الجبل البهي ؟

عَهْدَ كان فتِياً يمرح على بحيرة جنسَّر، لطالما سرّحَ نظره على تدفاق الاردُنّ الآتي من فوق، ومما وراء فوق.

ــ من أين، يا عمّ، ينبع هذا النهر ؟ سأل ولا بد ذات يوم راعياً عجوزاً.

فأجاب الشيخ:

ــ انه ليتجمع من ذوب الثلج على الحرمون.

ــ الحرمون ! قال هو متذكرا.

ــ هذا الجبل الذي ترى، المجلَّلُ كالشيخ، طوالَ السنة قريباً، ببياضٍ صاف. إنه احدى سلسلتي لبنان.

ــ لبنان ؟ أجاب مستغرباً بسذاجة، لبنانُ الكِتاب ؟

ــ نعم، لبنانُ الكِتاب.

تراه منذ هذا الحوار راح ينوي أمراً ؟

من يدري ؟

وجُلُّ ما نعرف انه، يوم افتتح رسالة الالوهة في الارض، أبى إلا أن يعتمد بمياه النهر الذي ينبع من احدى سلسلتي لبنان.

وهكذا تكون ثلوجُنا أوّل من قصد منا اليه.

عهْدُ ذهنه بلبنان، عهْدُ قلبه، بل جُماع روحه وجسمه، عهدٌ قديم إذن.

وإن هو جاء إلى ارض صور وصيدون يستريح، فعنْ سابق معرفة بجبل الطيوب: من حِفظِه اسمَه تهجئةً وكتابة، إلى تسريح النظر على قممه، إلى فتحِ الصدر لنسيمه، إلى الاغتسال بمائه يبترد.

ــ لهذا الجبل فضلٌ علي، كاد يقول.

ولو انهم اصغوا إلى تمتماته لربما سمعوها.

ولسمعوه يناجي صور منذ اطلت:

مَن هذه المشرقة كالصبح ؟

الجميلةُ كالقمر ؟

المختارة كالشمس ؟

المرهوبة كصفوف تحت الرايات ؟

« لم يُرد ان يعلم به احدٌ من الناس »، يقول مرقس، ولكن الناس قصدوا اليه « فلم يقدر ان يستتر ».

هؤلاء اللبنانيون مُلْحِفون في الطلب.

ليَتكلمون كأصدقاء، كمن لهم عليه دالّة.

ها هي امرأة منهم تناديه:

ــ « ارحمني، ايها الرب ».

فيتضايق التلاميذ.

فتقول:

ـــ « أغثني، يا رب ».

ولكنْ أنّى لها أن تحصل على شيء والخبزُ يكاد لا يَكفي البنين ؟

إلا أنها تُصِرّ:

ـــ « ان الكلاب تحت المائـدة لتأكـل من فُتـات البنين ».

هذه المرأة، ما حاجتها ؟

هي، ليس لها حاجة.

وانما لها بنت.

لسواها لا لها تلتمس ؟ إنها لَخليقةٌ بالانتساب إلى الوطن الذي نماها.

وما تُريد ؟

مسَّ الظلامُ عقْلَ ابنتها، فجاءت تطلب نوراً لهذا العقل. لا كساءً لعُري، ولا مسكناً لمأوى، ولا مالاً لأعالة.

كاد التلاميذ يصيحون.

ولكنه اخرسهم، هذه المرة، بوجهه المتهلّل وعينيه الباسمتين.

اللبنانية تطلب النورَ شِفاءَ.
كالارض في كل آن.
وتطلب منه ولو فُتاتاً من الذي تحت المائدة.
ــ « لأجل كلامك هذا، قال، اذهبي ». لقد شفيَت الفتاة.
وكان لها النورُ جميعاً، سخيّاً كما على المأدُبة.
وعندما « خرج من تخوم صور » أبى، يقول الانجيل، إلا أن « يمُرّ في صيدا ».
تراه اراد ان يتعرّف اكثر إلى الشعب الذي كان اوّل من ذهب اليه: خاطرةً في كتاب، ومنظراً حسناً، ونسيماً مُنعشاً، وماءً به يعتمد ؟ والذي كان أوّلَ من طلب منه النور بدل المأكل والمشرب ؟
وأكيدٌ انه ما ترك أرض لبنان إلا وهو يتغنى:

تُثمر الجبال سلاماً للشعب.
والتلال بُراً.
عودوا اليَّ فأعودَ اليكم.
جربوني بذلك،
فافتحَ لكم كُوى السماء،
وأفيضَ عليكم بَرَكةً حتى لا توسع.
وتغبطكم كلُّ الأمم،
لأنكم تكونون أرضاً شهيّة.

القرنة السوداء

من الارز يقصدون إلى « القرنة السوداء »، أعلى قمم لبنان. كثيرون انتهوا اليها واستمتعوا من علو ٣٠٨٣ متراً برؤية تمتدّ إلى جبال قبرص. اما حكايةُ الحب والحرب التي تُروى عن « القرنة السوداء » فلا يعرفها الا قلائل.

قصّها، آخرَ مرّة عام ١٩٣٢، على راهبة عميقة الثقافة، رجلٌ أوفى على الموت، ملتمساً منها ان تكتب عليها كتاباً. الراهبة لم تفعل. سوى أنها كانت، كلما ذكّروها بالأمر، تنحدر على خدها دمعةٌ اشبهُ بلؤلؤة.

عام ٦٣٥ أمر معاوية قائِدَهُ سفيان بمهاجمة طرابلس.

فامتنعت عليه. فضرب حولهَا حصاراً.فهزِئت به. حتى اذا طال الحصار وعمل الجوعُ عمله الفاجِع استنجدت المدينةُ بامبراطور بيزنطية. فبعث اليها بأسطول يجلو اهلَها جميعاً.

جُنّ جنونُ الفتيان منهم. ورفضوا الذهاب، مؤثرين الموت في مدينتهم الجميلة.

مِنْ هؤلاء البطلُ حَوْرَئيل. كان له زوجة تدعى زيزِيا، (حسناءُ كقلبِ الصبح تجللّها غديرتان سوداوان كَلَيْل) وطفلٌ وحيدٌ يزقزق بنيساناتِه الخمسة تحت شَعْرٍ يتناقض وشَعْرَ أُمّه ويقال من ذَهَب.

بعد فِتَرٍ متقطعة من جدلٍ وضراعة، وتهديد بانتحار، قدر حورئيل ان يُقنع الزوجة بأن تذهب والطفلَ مع الذاهبين. ولكنْ، فيما كانت تسلخ الولد عن صدر ابيه، قبيل ركوب البحر، هتف بها الصغير:

ـــ دعيني هُنا، فقد يحتاج ابي إلى من يجمع له النَبْل.

فيتجدّد الجدَل، وتروح زِيزِيا تتوسل إلى زوجها ان يستبقيها إلى جنبه، تموت ان مات وتحيا ان نجتْ طرابلس.

ولكن حَورئيل يأبى أن يَسمع.

ولا يهدأ له بال حتى يراها تنزل إلى المركب.

وفي الآخر يُخرج من جيبه شالةً من الحرير الأخضر ويلفّها على عنقها الفارع:

ـــ هذه، إياكِ ان تضيع. انها حِرْزٌ في عائلتنا. مسحتْه أُم جدّي على قبر المسيح. وما بَقِيَتْ معنا فنحن بخير.

قال هذا وعينا زيزيا الجميلتان تكبران من شدة التحديق إلى الشالة. وما هي حتى تنزعها من عنقها وتلفّها على عنق الولد ثم تضمّه مُغمضَة العينين.

المركب أبيض، وحده أبيض، فتذكّر حَوْرَئِيلُ يومَ عرسه، اذ امتطى وعروسَه فرساً وحدَه أبيض بين خيول رفاقه الحُمر والسود.

ما كاد المركبُ يغيب في الأفق وسط السفن والزوارق حتى هبّتْ عاصفةٌ اقامت البحر بعيده والقريب، ومزّقت اشرعةً في المرفأ.

ولكن حورئيل ظلّ متجالداً واثقاً بنجمة سعده.

ـــ اما تخاف ؟ سأله رفيقٌ له.

ـــ عليهما ؟ لا. انهما محروسان.

انقضت ايام، ودخلَ جندُ معاوية طرابلسَ الخالية الاّ من بعض العجائز ـــ ومن البطل حورئيل.

كان شبهَ وحيدٍ في مدينتهِ المغلوبة. فاستشعر طعمَ الموت تحت اضراسه. ثم وجد نفسه خارج الاسوار، تائهاً في بساتين ما ابقى المحاصرون على غُصنٍ منها.

وعنّ له أن يُصعّد في الجبل. فهو يعرف ان العمارة البيزنطية لم تبتعد كثيراً. وقد يلمح بينها مركباً أبيض، فيرافقه بالنظر إلى البعيد، إلى قبرص بالذات. وفيما هو يتوقّل في التلال لاهثاً من تعب، مرتاحاً حيناً ودوماً غيرَ متناس ان يتلفت جهة البحر، اذا بالعاصفة تهبُّ من جديد اقوى وآكل، فيتلطّى بجذع زيتونة. ولكنه لا يلبث ان يشهد الأغصان تتقصّف حوله وعليه، فيقفز إلى جذع شجرة أقوى. وما هي، حتى يُبصر بشيء يتطاير في الريح المُعْولة، فيمرُّ بباله خاطرٌ مخيف، ولا يعود يعبأ بنفسه أيبقى حياً أم يموت ! ويركض وراء الشيء، يركض بعيداً بعيداً.

انه ليتبينُه الآن. هو الشالة الخضراء التي ربطتها زيزيا على عنق الولد. تراه متى التقطها سيجدُ عليها دماً أم ستكون كلّها رسالةَ نَعْي ؟

الريحُ لا تنفك تحطّ بالشالة وتشيل، ويكاد لا يقترب منها حتى تنقذف إلى النهايات. فيركض ويركض ويركض.

أيَّ قوة أُعطيَها في القفز ؟ كم ليلةً وكم نهاراً انقضت عليه ؟ كلُّ ما يعرف انه لا يزال قوياً وانه يركض وراء شالة خضراء.

ها هو الآن على مقربة من قمّة القِمم في لبنان. لطالما بلغها مع رفاقه وهو يافع. هي الآن مكسوّةٌ بالثلج، يغرق فيه إلى الركبتين فلا يأبه. وينتشل نفسه بعنف، يكفيه تشدداً انه سيقبض على الشالة.

فقزةٌ، فقزتان، ثلاث ويكون فوق. ويمدُّ ذراعاً ولكنه يقع مَغْشِيّاً عليه.

عندما يستفيق يجد اصابعه قد قبضت على الشالة.

يقرّبها اليه، يشمّها، يقبلها وهو يجهش. انها هي هي، بلونها الاخضر، كما ودعها بنظراته ملفوفة على عُنُقِ الصغير. لا دَمَ عليها، ولكنّ احدى قرانيها معقودة. فيفكّها. فاذا القرنة سوداء. انها تحتوي على خصلةٍ من شَعْر. شعر زيزيا الزوجةِ المعبودة. فيفهم انها هي التي ماتت ونجا الصبي.

ما يعمل ؟ تراه سيُعطى ان يعود إلى طرابلس ينقضّ على القائد الذي كان سبباً في موت التي لا أجمل منها الاّ هي ؟

ها هو الآن يُدرك أنه محطّم وان الموت لن يُمهله. انه ليتجالد في عمل أخير وبعد لأيٍ يسحب خنجره من نطاقه ويروح يحفر في الصخر الذي امامه على قمة القمم، بلغتهم اللغة الآرامية، سطراً، ثم آخر، ثم ثالثاً.

« القرنة السوداء من الشالة، يكتب، انتهت اليَّ هنا.

« إن اعوزتني الحياة فعلى ولدي، هو، ان يكون بطلاً.

« اعلى منا شرفاً لن تكون هذه القمة ».

وحاول أن يجرَّ نفسه صوب طرابلس؛ الا انه لم يبتعد كثيراً.

وبعد أيام كان نسرٌ يجثم على جثة.

عشرون سنةً انقضت، واذا بفارس اشقر يتسلق الجبل.

في عدد من الفرسان. فتُوقفهم في ضاحيةٍ من طرابلس امرأةٌ عجوز.

ــ إبنُ حَورثيل! تقول، ابنُه أكيداً ! منذ ثلاثين سنة شهدتُ اباك، وهو شاب، يركب مثل هذا الجواد، في مثل هؤلاء الرفقة. لكنه، هو، كان، امامه على السرج أجمل نساء لبنان. حملها إلى فوق لتغمز الشمس وهي على قمة القمم. انت اين عروسك ؟!

وتطاولت العجوز بعنُقها إليه، وأكملت هامسة:

ــ وكانت طرابلسُ لنا.

فخفض الشاب بصره. وانفجرت على عينيه دمعتان كبيرتان. ثم لكز جواده.

ــ كانت تتكلم على أمّي، قال لرفاقه، أُمي التي غرقت في البحر، لكنّها تكلمت أيضاً على شيء اعظم.

وفوق، على قِمّة القمم، فيما هو مكبٌّ على أحد الصخور يحُلُّ حروفاً بعينها عمل فيها الثلج والزمن، هاجمه نسرٌ مسنّ، فصوّب رفاقُه اليه نبالهم، فهتف بهم:

ــ دعوه لي فقد يكون بيننا ثأْر.

سوى انه اكتفى بأن جفّل النسر.

ــ من يدري ؟ هتف به، فقد لا تكون انت.

ويقال إنه، عندما نظر في عيني النسر لآخر مرة، شهد في قعرهما شيئاً قَفَّ له شعْرُ رأسه، فندم لأنه لم يمزّقهُ تمزيقاً.

بعد أيام كان الشاب في دمشق في حضرة معاوية:

ــ مَن أنت ؟

ــ لبناني. ولدتُ في طرابلس وعشتُ في بيزنطية.

ــ وتُريد ؟

ــ أن أعود إلى مدينتي مع بعضٍ من عائلاتها.

ــ هل لك علينا ثار ؟

ــ ثارات.

ــ منها ؟ سأل معاوية مُعجباً بشجاعة الشاب.

ــ منها أنك، بعد أن جلونا عن مدينتنا، اسكنتها جالية من اليهود أولئك الذين تسبّبوا في قتل نَبيّك.

وتأثّرَ البطلُ الأموي للجواب وقال:

ــ ليؤذَنْ لهذا الفتى في الدخول إلى طرابلس، هو ومن يشاء.

كان، في المدينة، إلى جنب الجالية اليهودية، حاميةٌ أموية يستدعون بعضاً منها إلى دمشق، على جناح السرعة، كلما احتاجوا إلى نجدة.

وبعد نصف قرن بالضبط من فتح المدينة، اي عام ٦٨٥ ــ ومعاوية قد لقي وجه ربه وبعضُ الحامية متغيّبٌ في دمشق ــ ثارتْ طرابلس.

وبعد أيام كان قائدُ الثورة عند عجوز الضاحية، وهو على جواد أبيض في رفقة يركبون الخيول الحُمر والسود.

فاذا العجوز قد أسنّت كثيراً. لكنها عرفته. فقالت:

ـــ هذه المرّة، معك عروسُك.

ـــ نَعَم، وسأُعَرِّفها إلى أبي. وسأقول له: عادتْ إلينا طرابلس.

وتكبُر عينا العجوز:

ـــ ماذا ! حَورَئيل مختبئٌ فوق ؟!

فيخنق الفارسُ الأشقر غصّة:

ـــ أبي لا يختبئ. لكنه على كل حال فوق. وشَعْرُ أمّي، أيضاً، فوق، في القرنة السوداء.

فخجلت العجوز، ثم حاولت ان تعوّض، فتقدّمت من العروس تتبيّنها ملياً:

ـــ جميلةٌ، قالت له، جميلةٌ مثلها. لا تنسَ أن تدعها تغمزُ الشمس وهي تشرق على قِمّة القمم.

رُزابَعل

كان أشّور بنيبال يلهث كحصانه، وهو يتقدم الجيش في ذلك الحرّ الكاوي، والصحراء تكبر أمامه على البعيد، تأبى ان تنتهي.

أتراه يتابع الاياب صوبَ أشّور ام يتوقف ؟

ــ اين نحن من الفُرات ؟ سأل المَلك.

ــ لم يبق الاّ ان نُبصر بمجراه، قال أحدُ القوّاد.

فتنفس أشّور بنيبال الصعداء، وخفّف من سير الجواد.

الجيش الآن يغطّي الضفتينِ وافرادُه منبطحون على الارض يَعبّون من المياه الجارية. قلائل منهم يتأملونها

يتساءَلون: أهي نظيفة كفافاً ؟ ولكنهم لا يلبثون أن يشربوا.

فرغوا من نَصْب خيام المَلِك، انيقةً مزركشةً شامخةَ القباب. فرشوها بالطنافس وعلّقوا على جُدُرها الارجوانية أعلاماً وشارات. ثم راح العبيد يظهرون منها ويغيبون بجَلَبَةٍ وخفّة، ينقلون فِضّي الآنية وشهيَّ المآكل.

ــ بين الاميرات الصُوريات، اسيراتِنا، واحدةٌ شقراء فارعةُ القامة. جئني بها، قال أشور بانيبّال لكبير مرافقيه. لا تُغلظ لها القول إنْ تمنّعتْ، ولكن لا تَعُدْ بدونها.

لم تَطُلْ غيبةُ الرجل. وها هو، من الخارج، يُسمع صوته الأجشّ، يصطنع الحديث مع الحجّاب كأنما يُطمئِن المِلك إلى انه نجح في مهمته.

وتشُقُّ بابَ الخيمة، إلى حضرة أشور بانيبال، حسناءُ في العشرين من نيساناتها. لكأنّ شعرها سبائك من ذهب ضفرته غدائرَ مترصّنةً تتدلّى على رأس ولا آنق، أما قامتها المشيقة فطيف من الاطياف.

ــ ما ظننتُكِ على هذا الحسن! هتف المِلك بالأشّورية.

ــ شُكْراً، أيها المِلك.

ــ ماذا! او تتكلمين لساننا ؟

فاطرقت الأميرة لشبه الاعجاب يُسمعها اياه عاهلُ أشّور. ثم قالت ببساطة من تُحدّث صديقاً:

ــ ليس من صيدونيّ لا يُجيد ثلاث لغات.

ــ وانت ؟ ساءل متحبباً.

فاستثقلت لهجته وراحت تفكّر بان لا تجيب، ولكنها عادت تخنق حُنْقَها بالجواب:

ــ أنا، أعرف ثمانِيَ.

وفجأةً فطن المِلكُ إلى انه كان، منذ دخولها، ما يزال مشدوهاً بعينيها الخضراوين. فاستعاد لهجة الواثق:

ــ اقتعدي هذه الطنفسة، يا عزيزتنا الأميرة. هنا، قِبالتي هنا، إلى هذا الخِوان. انت غير اولئك. كأنّكِ غيرُ سبيّة في معسكر أشّور.

ــ غيرُ سبيّة ! لو انني هكذا لما كنتُ في خَيمتك.

ــ اين تريدين ان تكوني ؟ في قَصْر ؟

ــ بل في صور، في بَلاط اخي.

فاصطنع المِلكُ الابتسامةَ، ثم ما لبث ان اعتراه اضطرابٌ اشبهُ بعاصفة.

ــ صور صور ! الحاضرةُ التي تأبى استسلاماً.

فاكملت رنزا:

ــ وستستمرّ تأبى.

ــ من قال ؟ صرخ الملك.

ــ أنا قلت. وأجدادك قالوا من قبل. وآباؤك. وأنت نفسك تقولها اليوم.

فعاد المَلِكُ إلى هدوءٍ ماكر :

ــ أجل أنا عائدٌ من حصار لصور لم أصبر له حتى يؤتيَ ثماره. ولكنني جئتُ بك وبرفيقات لك يجري في عروقهن دمٌ مَلَكي. وجئتُ أيضاً بابناء ابطال، بابن الملك بالذات. اسيرات واسرى سأحطّمهم، ان تململت صور في غير صالح أشّور. احطمهم كما افعل بهذه الكأس.

وضرب أشّور بانيبال بكفّه على كوب ماء كان أمامه فطحنه، ولكن دماً غزيراً نفر من يده فضرّج ثوبه والطنفسة التي عليها يتكئ.

وسارعت الاميرة الصورية إليه، امرت عبداً بأن يأتي بماء كثير وضماد.

ولمّا تأخّر جثت أمام الملك ومزقت اطرافاً من البستها الفضفاضة، ثم صبّت على الجرح من شراب الأباريق، فيما كانت أسنان أشّور بانيبال تتأكل شفتيه تجلّداً.

وإذ انتهت من شد الضِماد راح يضحك:

ــ أرأيتِ، قال، أرأيتِ كيف أنّ شقيقة ملِكِ صور تخدم ملكَ أشّور.

ــ تخدم ؟ ان لعَمَلي مغزىً آخر، يا أشور بانيبال. انت الآن جريح. اما المقاتل الذي في ثوبك فقد كان له ان يذوق طعم نبالنا وحجارتنا، ويتعرّفَ إلى نيراننا الساحقة الماحقة تحت أسوار صور. تقول انك اسرْتَ نسوة منا بينهن اميرات ؟ شرفٌ لسلاحنا العريق أن تتقلده النسوةُ أيضاً.

« بلى، عَقِب انكفاء إيلولاي إلى قبرص، ارتقى عرشَنا صنيعتُكم إيتوبعل. لكن حليفتنا مصر ضمّدَت جراحها في سهل أكرون وصمدت لكم في مصر السفلى حيث تراجع سنحريب إلى نينوى هارباً أو يكاد.

« ونعِمنْا بالسِلمِ بفضل دهائنا يوم سلاحُنا مُصاب. حتى ثار عليكم عبدَ ملكوت عاهلُ صيدون.

« تغلبتم عليه نعم، ولكن بعد أن فصدَكم فصْداً. ومات شريفاً بحدّ السيف.

« وهادنتم بعلاً في تسوية وتبادل منفعة. لكن صور ما لبثت ان ثارت، يؤازرها تحالفها مع تاهرقا المصري.

« حاصرتموها. ولكن عبثاً. ورحتم تنقشون على الانصاب انكم قُدتم فرعونَ مصر من شفته. ومثلَه ملك صور.

« أقوال... أقوال... بها تخدعون الناس، وانما انفسَكم تخدعون.

« وجزيرةُ صور، صورِ الأبطال، ما تزال بِكْرا لم تُمس.

« وهذا أنت تَخِفُّ إلى غسل العار. تهاجمُها. فبماذا تعود ؟

« ببعض نسوة وبكأسٍ متى شئتَ تحطيمَها، مهدّداً صور، جرى الدم من يدك سكيباً.

« حاولِ النوم، حاول النومَ، ايها الملك. انت تَعِبٌ، يا صديقنا الأشّوري، لقد نزف منك دمٌ كثير ».

* * *

— جئني بالامير يهاف، صرخ أشور بنيبال بتابع له عملاق، جئني بيَهاف مِلْك. ما بالك دَهِشاً كالوتد ؟ جئني بأسيرنا ابن ملك صور.

فلم يتحرّك الرجل. وبعد هنيهةٍ انحنى حتى لامس الارض، ثم قال:

ــ عفوَكَ، يا مولاي... قابَلَتْه عمّتُه، عمتُه رنزا بعل، وكانت متأثرة كئيبة، فاذا هو غاضب. ولقد ضرب حارسه بحدّ السيف فصرعه.

ــ إلى هنا ! قال أشور بنيبال بمكْر، تركْنا له سلاحه مبالغةً في الاكرام، فبالغ بدوره...

كان الامير يهاف مِلْك مديدَ القامة، نَزِقاً لا يُطيق مزاحاً.

هو من رهائن أشور بنيبال وأسراه. عَلِق في فخّ الاشوري نتيجة ثقته المسرفة بما له من فصاحة لسان. ظنّ انه، لمحض مقابلة الملك، سيقنعه بفكّ الحصار عن صور وبالعودة إلى بلاده. ولكنه لقي غير ما كان ينتظر: أمر أشور بنيبال بوقفِه واقتياده في ركابه إلى عاصمة أشور.

وفيما كانوا يدخلونه على المَلِك نهض أشور بنيبال مصطنعاً التكريم:

ــ قتلتَ أحد حُرّاسك ؟ فاجأه بالسؤال، وهو يدله على مقعد يقتعده، لا بأس لا بأس، ولاولاد الملوك حَقٌّ على اعناق العاديين من الناس.

« كنتُ اعرف الحارس. كان عبداً واعتقتُه بيدي.

« وها انت تعتقه من الحياة.

« حسن... وقد تكون مُفضلا عليه أكثر...

« كان سمجاً أحياناً. اتراه أغلظ لك القول ؟ ».

ـــ لا، أجاب يهاف مِلْك. كان دوماً جمَّ الكياسة. ولكنني اغمدتُ في صدره سيفاً عجزتُ عن اغماده في صدرٍ آخر.

فقهقه أشور بنيبال قهقهة تجلّد، ثم راح يُربِّت على كتف الامير الصوري ببعض العنف، كأنما يذكّره بانه هو هنا في أشور في قبضته يأمر بدقّ عنقه متى شاء. وقدّم له كأساً:

ـــ إشرب، إشرب. ولكن قل لي، الآن، وقد فرّجت عن كرْبِك بقتل هذا العبد، قل لي لماذا خرجتَ من الأسوار في تلك الأمسية ؟ أصحيح انك كنت تجدّ عندما طلبت إلي فكّ الحصار عن صور ؟

فقال يهاف ملِكْ :

ـــ كنتُ واثقاً ببراهيني.

فازداد أشور بنيبال ضَحِكاً. واستطرد:

ـــ صدّقني لم أكن استمع إليك.

« لم يكن يمرُّ ببالي أنكم حقاً ستثقون بي... وأن

بوسعي وضْعَ يدي على أحد منكم... عليك أنت مثلاً... أنت ابنُ المَلِكِ... هذا أمر له ثمن...

« لقد زِدْتَ حاشيتي بمن يجري في عروقهم دمُ المُلك.

« وبينهم اميرات...

« اميراتٌ حِسان كُنّ يقاتلن كالرجال.

« هُنّ الآن مثلك في أسر.

« كانت عندي منذ هنيهة احدهن... شقيقة الملك... »

ـــ عمّتي رُنْزا بعل.

« لقد اخبَرَتْني بكل شيء ».

ـــ بكل شيء ؟!

ـــ أجل، وكيف انك تلاحقها كطفل. وكيف رقّت لحالك منذ اسابيع، عندما، في خيمةٍ على الفرات، رُحت تتبجّح فمزقتَ كفّك بتحطيم كأس.

ـــ أوَما قالتْ أكثر ؟

ـــ ما مِنْ أكثر، ايها الملك.

فراح أشور بنيبال يُرسل اصابعه في لحيته ويهزّ رأسه كاظماً غيظاً.

ثم عاد يتظاهر باللطف:

ــ الأميرة عمتُك في شرخ صباها... حسناءُ... حسناء جداً...

ــ كقلب الصّبح، أُكمل يهاف مِلْك. انها معبودة صور. ولكن لا لملاحتها وحسب.

« هي بطلة في الابطال.

« إياك أن تطمح إلى شيء، يا أشور بنيبال، أن لعمتي الفتيّة هذه كرامةً خليقةً برأسها الأشقر الجميل.

« بعيدةٌ هي عن حماية جيشنا. ولكن لها من نفسها جيشاً ».

ــ أوَلا ينفع فيها الوعيد ؟ سأل الملك بين مستفهم ومهدد. ورؤيةُ العبد مضرَّجاً بدمه أوَلا تحفِزُها إلى عِبْرة ؟ نحن أيضاً لنا مثلَك سيفٌ نغرزه في صدور الضِعاف ان شئنا.

وفجأة انتقل الملك إلى لهجة أخرى:

ــ ألا تُؤثّر في عمتك حِليٌّ وهدايا ؟ ان انوال أشور تنسج أيضاً أرجواناً. وفي خزائننا ما يختِّم اصابع ألفِ ملكة بالزمرد والسفير والياقوت.

« أعرِضُ عليها ان تكون زوجتي الأولى. أجِبْ، يا يهاف، ما لك لا تحير ؟

فقال يهاف:

ــ أستَمِع اليك تحاول الفصاحة، يا أشور بنيبال... هذه بضاعتي...

ــ ما تعني ؟ صرخ الملك غاضباً.

ــ أعني انك بدأتَ تُجيد القول. اسمع: بقدر ما هي ناعمة الكَلِم، عمتي رنزا، رنزا بعل، عنيدة. وفي صمتها، أحياناً، جوابٌ ولا كَشكِّ السنان في النحر.

فازداد أشور بنيبال رِقّةً. وراح يقول:

ــ عرفتُ ذلك. عرفت. ساعدني عليها، يا يهاف مِلْك. ولك بالمقابل حرّيتُك.

ــ رنزا بعل تتزوج عدوَّنا ؟ إنّك لا تجدّ، يا أشور بنيبال. على تصرّف هذه المرأة يتوقّف مستقبلُ الشرف في مملكة صور.

ــ وإن صدقْتُك انها نِصْفُ مقتنعة ؟

فقهقه الصوري:

ــ عندئذ أصدقكَ انك جُننت.

فكاد أشور بنيبال يخرج عن رباطة جأشه. ومدّ يده إلى كأس أمامه يستعملها كسلاح. سوى انه عاد وآثر تجلُّداً ممزِّقاً. وبدْل أن يضرب الأمير بالكأس قدّمها اليه.

ــ اسمع، يا ضيفنا العزيز، سأجيء برنزا بعل إلى هنا، وتصدقُك أذناك انها راضية.

ــ عبثاً، أيها الملك، عبثاً تحاول. أنا أعرف رنزا بعل.

فرفع الملك صوتَه وانفجر بالغضب كولد:

ــ ولكنها جثتْ عند رجليّ... يوم راحت تضمّد جراح يدي... أو يمكن أن لا تكون أحبّتني ؟

فأجاب يهاف مِلْك ببرودة:

ــ فَعلتْ إشفاقاً على جريح. والجريحُ عندنا هو كذلك ولو عدّواً. اما إن كان قد راودها هاجسٌ آخر... هاجسُ امرأة...

ــ إذن ؟! هتف المَلِك بأمل.

ــ إذن تكَفِّر عن ضعفها بالنار ! تُحرَق !!

ــ منْ يحرقها ؟ إنها في عصمتي ؟

ــ هي تَفعل. حرائرُ صور لا يمحو ذلّهن سوى النار يجتَنُها برضى باسمات.

وما هي حتّى دخل عبدٌ يقول:

ـ ماتت الأميرة رنزا بعل. أشعلت ناراً والقت بنفسها في اللهب.

كاد أشّور بنيبال يسقط على الأرض، فَرِحاً مَكرهُ ومحطَّماً قلبُه.

زَارَنا التاريخ

ذاتَ يوم قالت فتاةٌ صغيرة لشاعرٍ من بلادها كانت تحبّه وهو لا يدري:

ـــ هذا الليل، والصُبح يكاد ينبلج، حلمتُ حُلماً عَجَباً ولكنه جميل !.

« قال... أنا مَلِكَةٌ بِعرشٍ وصولجان، وزارني التاريخ.

« قال... والتاريخُ، يا شاعري، لم يكن هذا الكتاب الثقيل الذي احمله معي كل يوم من المدرسة وأروح أجهد لإدخال صفحاتِهِ في رأسي الصغير. لا وإنما كان ـــ كما يشاء الحلم ـــ امرأةً ومدينة معاً.

« قال... دخل عليّ التاريخ وانا في قصر البلّور، مقرّي الشتوي المغمور أبداً بالثلج، أتفرج من داخله على مفاتن الطبيعة ولا أُحِسُّ قرسةً من برد.

« بلى كان التاريخ اثنين: صبيّةً حسناء تُسمّى أورب ومدينةً قديمة تدعى بيبلوس.

« أهلاً، بالتاريخ، قُلت.

« قال... ويُفتَتَح الحديث ويروح التاريخ يتكلم.

« كيف ؟ هذا، يا شاعري، ما اعجز عن نقله اليك.

« أو يكون التاريخ امرأةً ومدينة في وقت معاً، ويروح يقصُّ القِصص من فمين مختلفين، واقدرُ أنا التلميذةُ الطفلة أن أستعيد جميع ما قال ؟

« ولكن ما لنا ولهذا. وعلى أيّ حال سأحاول.

« قال... كانت الصبية التي تدعى أورب بيضاء ولا كالغمام، بينما المدينة التي تدعى بيبلوس مباعدةً في القِدَم متعدّدةَ القِباب شامخة. أورب هي بنت الملك أغنّار عاهل صور ذي الاولاد الثلاثة الأبطال، أولئك الذين يبعد طموحهم من أمامي حدود الوجود، وبيبلوس هي حاضرة الدين والثقافة القائمة على شاطئ ساحر فوق جبَلٍ صغير، جُبَيْل له أسلاك من ذهب تمتد إلى آخر الأرض.

« قال... ونظر التاريخُ اليّ مقطّب الحاجبين، ورفع صوته بوجهي: كيف تَدّعين، يا ملكة الزمان، أنك واقفة على التاريخ ؟

« وما هي حتّى أخذته سَورَةٌ من غضب، وخُيّل إليّ أنّ صراعاً في داخله نشبَ بين المرأة والمدينة.

« بيبلوس تقول إنها أقدمُ مُدُن الدنيا. يتناقلون قولها هذا مؤرّخاً عن مؤرخ. إنها أولى بنات إيل ــ إله الزمن ــ تجرّأتْ وانحدرتْ من عن أصابعه بينما كانت شقيقاتُها المُدُن وجِلاتٍ مرتجفات من برد.

« كان ذلك حوالي أوّل الدهر، ووالدُها متّكئٌ بكرع الهواء في سفح لبنان.

وأورب تقول إنها كانت كلَّ يوم تلهو في أترابها على الشاطئ، فيراها بحّارةُ المَمْلكة فيُجَنُّون، وينقلون حديث غرامهم بها إلى الموج، وهذا ينقله إلى شَفا المعمور.

« بيبلوس كَبُرتْ وأصبحت حاضرةَ القداسة والفكر في الدنيا، يقصد اليها الناس من الاربعة الاقطار يأخذون عنها حُبَّ المغامرة.

« قال... واهلها لم ينوا فقط اجملَ المعابد والملاعب وقِبابَ الغرانيت وأعمدة المرمر تُغنّي مع الريح والنور

والصاعقة. لكنهم، فوق ذلك، تجرّأوا على اقتحام مجاهل السرّ، غامروا في داخل النفس، غامروا في قلب الله.

« كُلّ هذا في الحُلم، يا شاعري، في الحُلم دوماً. لك أن تُصدِّق وأن لا تُصدق. لكنّه هكذا كان.

« وأُورب سَمِع بها إلهُ الآلهة في الغرب. وقد يكون بطلاً سمَّوه هكذا لخبرته بصُنْع الآدميين من الصلصال أو بإلعاب الصاعقة على رؤوس الاصابع.

« هذا قام إلى مملكة أبيها، وبحيلةٍ غير بارعة خطفها وطار بها فوق أواذيّ البحر.

« ولو رويتُ لك، يا شاعري، قصّة الحيلة، كما انفضحت لي في الحُلم، لمنعتني من إتمام الكلام.

« بيبلوس راح الناس يتلقّنون على يدها العجب، يتذوّقونَ جمالَ ما تُبدع الأيدي، يطرقون بابَ المجهول، ولكنهم خصوصاً يتعرفون إلى الاشياء التي لا عهد بها في الأرض. الخوارق، مثلاً، « جنون الله الذي فوق عَقْل البشر »، كما يقول بولس. حتى ليَزْعُم واحدٌ اسمه رعمسيس انه « قدّم لها، كما فاخر وكتب، هدايا تفوق رمل البحر ».

« وأورب قام اخوتُها الثلاثة كلٌّ إلى قارة يطلبونها من

البر والبحر، من البشر والآلهة. وكان لواحد منهم أن يحمل في ركابه النار والحرف والشعر والمغامرة، يحمل ذاك الذي عاد وسُمّيَ المدنية يَبْدرها حيث نزل.

« بيبلوس المدينة قالت جديداً، علّمت ان الآلهة ليسوا آلهة، وان ليس هناك سوى إله أحد يقدر على كل شيء، وان للانسان نَفْساً تهزأ بظُلمة القبر، تبقى إلى الأبد.

« وارتاح الناس، ما دام أنّ لهم من يقدر على كل شيء وانهم إلى الابد باقون.

« وأورب المرأة استوحشت، وهي في وحدتها بعيدة عن اهلها وزوجها مشغول عنها بخلْق الناس والآلهة. وهكذا براها الحنين إلى جَبَلٍ فوق صور والى جنائنه المعلقات عند الغمام.

« ذلك ان إله الآلهة كان قد نقلها إلى قارة بدائية لا مدنيّة فيها، قارة اشبه بقاع صفصف. ولكنه، لما رآها تكاد تذبل نضارتُها وتيبس من كآبة، قال: إكراماً لعينيك سأجعل هذه القارة الصحراوية اجمل قارات الدنيا، وباسمك أُسميّها.

« قال... ومِنْ يومها صارت القارة هي أورب وصارت أورب هي القارة.

« كيف ؟ هو الحُلم، يا شاعري، هو الحُلم فلا تسأل.

« وذات يوم نسيت بيبلوس كلّ شيء عن تاريخها الا فصلاً واحداً.

« كانوا على أرضها قد ألّفوا أوّل كتاب عرفه العالم، فراحت جميعُ لغات المدنية تدعو الكتاب « بيبلاً » مشتقة اسمه من بيبلوس.

« كذلك لم يعد احد يَسمعُ باورب، بنت ملك صور، وانما بات الجميع يتكلّمون على اورب القارة التي هي نبع المدنية.

« بلى، بيبلوس المدينة صارت الكتاب، واورب المرأة صارت المدنيَّة ».

« وراح التاريخ امام عرشي يتغنّى بانه هو الكتاب والمدنيّة معاً. ويُسمّي نفسَهُ بيبلوس مرّةً ومرّة أورب، حتى لقد حرتُ كيف يكون الاثنتين معاً.ولكنّه الحلم هل أُصدّق الحُلم ؟ ».

كان الشاعر يُصغي إلى الصغيرة الفطنة تقص قِصّةَ ليلةٍ قضتها في صحبة الخيال.

أخيراً قال لها:

ــ هذه المرة صدّقي الحلم، يا فتاتي، وانما، على هذا

الكوكب الذي يُسمّى الأرض، ليس سوى اثنين: الكتاب والمدنية، بيبلوس واورب. وكلتاهما من عندنا، من الأرض التي نَمَتْك. إنهما سنّاً أكبرُ منك بقليل. ذلك عندما لا تتناسَين ان تكوني ملِكةً بعرش وصولجان.

« الحقيقةُ في الناس ؟ إنها لتَبْلُغُ أحياناً حَدَّ الحلم ولا يصدقون ».

قلبُ الله

كان عروسان يحضران صلاة المساء، في كنيسة الموارنة، بباريس. وكان اليوم يومَ أربعاء، فلفت العروسَ قولُ الكاهن: « يا رب احفظ لبنان »، فسألته بعد الصّلاة:

ـــ لمَ تخصّون الأربعاء بهذا الدعاء لوطنكم ؟

فحوّلها فوراً إلى مخطوط قديم اتفق ان كان أمامه على المكتب. ولمّا لم تفهمْ من خطوطه ولا كلمة راحتْ اصابعُ الكاهن تمُرُّ على كل سطر تترجم النصّ بتقوى.

« ... في قديم الزمان، كان جبلٌ يعيش تحت البحر، تُعشّش فيه الاسماك وينبُت المرجان الجميل.

« كان الجبل وديعاً ولكن على أَنَفَة. مما أدّى به إلى نزاع مع بركان يسكن في الجوار. وكاد التنافس يتفاقم لولا أن فضّل الجبل هجرةَ المكان.

« ــ يَمنةً، قال في نفسه، أم يَسْرة ؟ لا هذه ولا تلك. وسأمضي صوب العلاء.

« ها هو الآن يَشقُّ اليَمّ تودعه الاسماك، صويحباتُه منذُ القِدَم، وداعَ الابد. الا طائفةً منها نَزْرَةَ عدد. وعبثاً يروح يُقنعها بأنْ لا قِبَلَ لها بالعيش في بحر الهواء. فتأبى الا أن تكون، ولو مدفونةً، حيث تَشمُخ قِمَمُه.

« أخيراً إنصاع لها لا يطيق رَدَّ سُؤْل.

« وظل يرتفع في ملاعب الريح حتى دنا من الشمس، فغمزَتْه أن توقّف. فقال: « آمنتُ بالنور أُطيعه ». وتوقف.

« وبات ليلتَه الاولى لم يَغمِض له جَفن. إذ أخذت النجومُ تحجّه زائرة: الزُهرَة في الطليعة ثم رفيقاتُها. ويقال إن عُطارِد كاد ينسى نفسه في السفح عندما ازِف موعد الإياب.

« وقُبيل الصبح ــ وكان ذلك يوم أربعاء ــ لاحت له، في الأفق العالي إلى الشرق، غمامةٌ تغذّ السير. وعندما قربت منه تبين أنها أربعة نسور.

« وفوق أول قِمّة واجهته فَتَحتِ الكواسرُ براثنَها تُفلت بِذَرَةً من حَبٍّ عجيب لم يكد يمسَّ الثرى حتى راح يُطلع شجراتٍ لا عهد للارض بمثلها. وكان يرافق نموَّها صوتٌ يقول: « هديّةُ الربّ ».

« وما هي حتّى كانت غابةٌ كثيفة، شامخةُ الاعراف، تغطّي الجبل من قِمة إلى سفح.

« وفي ظل بعض الغصون، توقّف الاربعةُ النسور وترجّلت من على اجنحتها فتاةٌ كقلب الصبح.

« راحت الفتاة تسرّح نظرها على عطفات الجبل فتهزُّ رأسَها استحساناً ثم تمدّ يدها إلى أعناق الكواسر تربّت عليها. وفيما كانت دمعتان تتلألآن عند هدبيها قالت:

« ــ لك الحمد ربّي، يا حنّان، يا إله السماوات.
هديتني الى اجمل بقاع الأرض.
لن أنسى.
سأكون وفية.
باسمِكَ سأدعو هذا الجبل.
فيخفُق بالحب كقلبك.
« لبّ حنّان » منذ اليوم يُدعى « لب أنان »، « قلب الله ».

« ثم التفتت إلى الأربعة النسور وبايماءة سعيدة أمرتها أن « انطلقي في طلب مأكلٍ لي ومشرب ».

« وعند الظهيرة، كانت الكواسر الأليفة تحطُّ تحت الأرز من جديد، وقد حملت غذاء الحسناء دِدِتّا أوّل من سكن لبنان.

« سوف تأخذ دِدِتّا من الجبل ان لا تنام على ضيم، أن تشغف بالرحيل صوب العلاء. وسيظل يرنّ في أذنيها نداءُ البحر، مهد جبلها، اما الجبل فيتعلم منها كيف يكون موطنُ الذين رَبُوا على أجنحة النسور.

« وتبني دِدِتّا فردوساً في جوار الغمام تستنبتُه أجمل الزهر وتقيم فيه آلفَ الطير وأشدّ الحيوان.

« وتكرّ السنوات هانئة.

« حتى يوحش دِدِتّا أن لا إنْسَ في الارجاء التي تجاورها، لا إنسان يحنو على صدرها وتستمع إلى خفقان قلبه.

« وتحلم بأن يكون وطنُها أسبق الأوطان إلى إيواء الخليقة العاقلة.

« ما هي من الأرض تلك التي وُلدت، لا يُعرف أين، على أجنحة الأربعة النسور. فلتنطلق الأربعة النسور صوب بعض النجوم تجيئها بالأمير الفتّان الذي سيَمدّ اليها يدين

خَشْنتين كصخر الجبل، بهما يبني معها أجمل ممالك الانسان وأبعدها سطوة في الكوكب الصغير.

« ويكون عرسٌ عظيم على قمّة جبل عظيم ».

وما ان كفّت اصبع الكاهن عن السير على القرطاس القديم، تعلن نهاية القصة، حتى كان العروسان قد تبادلا نظرة ملؤها الفرح لاهتدائهما إلى « دِدِتّا » اسماً لولدهما البكر ان هو كان بنتاً.

سوى أن العروس ما لبثت ان ارتبكت وقد خطرت لها خاطرة بالذات. فسألت الكاهن:

ــ ولكن قل لي، يا ابتِ، أوَلا تذكر المخطوطة اسم الأمير الذي جاء من بعض النجوم ليتزوج دِدِتّا ؟

لا، أجاب الكاهن، ليس في هذا النصّ سوى اسمين اثنين: « دِدِتّا » حسناء الأربعة النسور، « ولبّ أنان » قلب الله.

وتبادل العروسان نظرة ثانية ملؤها الفرح.

إيلولاي

ــ أنتَ بنفسِك ؟ لا ورحماك.

بهذا ضرعت إلى الملك إيلولاي زوجتُه الحسناء، فيما كان يُفلت من يديها.

عبثاً كانت قد حاولت اقناعَه بأن لا يَتْرك صُور، صُور الجزيرة.

ومن يدري ؟ فقد يكون بين البحّارة فوضويٌّ أشّوري. والنزول إلى الأسطول مجازفة. والملك البطل هو عندهم رمز الصمود وقائده، فإن اصيب بأذىً باتت صور في خطر.

أشّور يومئذ تَعرِض أبهظ المكافآت على الذي يقتل مَلِكَ صور، هذا الذي ما انفكّ يقاوم حصارَها منذ سنوات خمس طوال.

وما إن غاب إيلولاي عن انظار الملكة حتّى ادارت عينيها اللوزيتين التعبتين إلى ارض القاعة، فإذا إلى جنب العرش فتاةٌ كقلب الصبح تخرج مرتعدة من بين ستائر الارجوان.

ــ رَايْشا ! هتفت الملكة.

إنها بنتُها. ركضت اليها وقد سمعت ما دار من حوار بين أبويها الملك والملكة.

ــ ذهب ! ذهب ! لماذا لم تتعلّقي به أنتِ، لماذا لَمْ تتشبثي بأذياله ؟ لعلك كنتِ أوقفتِه.

فأجابت الأميرة:

ــ ولكنّه قال انه سيقوم بعمل عظيمٍ على رأس الأسطول.

ــ عملٍ عظيم ؟ أو سَمعتِه يقول هذا ؟! صرخت الأم قَلِقة.

ــ كيف ! أوَلا تتذكرين ؟ لقد كان، يا امّاه، حازماً فيما كنتِ أنت تجهشين بالبكاء.

كانت صور لم تنس أنّ تَغْلات بَيليزِر الثالث هاجم حيرام الكبير. كان لم ينقضِ ربْعُ قرن على انتصارات الأشّوري على حليف داود وسليمان، عنفوان صور الحديثة.

كان حيرام الصوريّ ملكَ صيدونيا كلها، وكانَ عَمْره يمتد من قبرص، هنا على مرمى حجر، إلى القسيتيريد عِبْرَ الأوقيانوس فوق.

ورؤيته يُصرع في ابّان مجده ليست من الامور التي تُنسى.

ولم تكن لتُنسى كذلك خيانةُ الملك أخاز الذي، لخلاف بينه وبين الملك بكاه، راح يستنجد الأشّوريين على خصمه وحليفِ خصمه رزين، عاهلِ دمشق، فيخفّ تَغْلات بيليزِر إلى دمشق يقضي على رزين.

لقد تبدّل الوضع في الجوار: قويت أشّور وحلفاؤها. فكان من الضروري أن تتحرك صور تفتُّ من سلطانها المتعاظم.

أعلنت انتقاضاً على علاقتها بأشّور. فخف سلمناصر الخامس، خليفةُ تغلات بيليزِر، يردّ عليها.

جَيّش حملةً بحرية من ستين سفينة، معظمُها من الاسلاب التي حصل عليها في صيدون وبيبلوس وارواد.

ولكن أسطول صور، الصغير المَرِن، خاض معركة اظهر فيها من البطولة والدُربة ما دمّر أُسطول المهاجمين المتفوّق عدداً وضخامةَ وَحَدات، وأخذ من رجاله خمسمئة أسير.

ورأت أشّور ان لا بُدّ من حصار بحريّ طويل النَفَس، قد يستغرق شهراً أو سنة.

وها هي سنواتٌ خمس طوال تنقضي والحصارُ لا يظفر بصور.

لكنّ صور هي أيضاً لم تنتصر. ترى هل نفد صبرُ إيلولاي، ملكُها البطل، فعزم على تسديد الطعنة التي تفكّ الخناق عن مملكته وتعطي المغزى النهائي لتلك الشجاعة الصابرة ؟

ـــ أمّي دعيني أنزل إلى الأسطول، قالت الأميرة.

ـــ أمجنونةٌ أنت ؟

ـــ لا بُدّ أن والدي مفكرٌ في عمل جَلَل. يجب أن أعضده. كل فتاة في صور تُفكّر في عمل شيء. أوَ أتخلف عنهن ؟

ـــ أحذّرك .

وتركت الملكة القاعة.

في المساء كانت الأميرة تُنصت إلى حديث ضابطين من الأسطول:

ـــ يريد المِلكُ أن نهاجِم في منتصف الليل. إنّي أتوقّع نصراً ولكن غالياً. قد نخسر نصفَ سفننا. قوادُ أشوّر يُديرون المعركة وهم متخلّفون عن السفن. آه لو نتمكن من اضرام النار في سفينة القائد الأخيرة، بَعْل شماي[1] بَعْل شماي، أيُّ رعب ننزله إذن في اسطول أشوّر.

ـــ ولكن أنّى لنا أن نصل إلى ذلك واسطولهم محدِقٌ بنا من كل جانب ؟ دعكَ، دعكَ من ملاعبة المحال.

انتصف الليل، والقواد ينتظرون اشارة الملك إيلولاي. كان الملك قد جاء بنفسه يدير القتال البحري. واذا بالنار تتعالى فجأة في سفينة أشّورية كبيرة تضرب بعيداً في عرض البحر.

وكانت معركةٌ ضارية، إلا انها غير طويلة النَفَس، في نهايتها دُحر أسطول أشّور وتنفّست الصعداء جزيرة الصوريّين الحسناء بعد خمس سنوات من الحصار الخانق.

---

١) يا إله السماء.

ورايشا بنتُ الملك ؟ رايشا الفتاة التي كقلب الصبح ؟

إنها لم تعد ليلتها إلى القصر.

ولا فيما بعد !

السيف الذي ينتظر

كانت الممالكُ الفينيقية قد خَنقتْ من مطامعها، ساكنةً إلى ما يؤمّنه لها من نفع مادي تَمَلْمُلُها بين الحياة والموت في الجامعة الأشورية.

الا صور. درّة البحر الأبيض، وسيدة الاقيانوسات.

كانت معتزّةً متشامخةً في ظل مليكها إيلولاي الباسل.

بيد أنها لم تكن لتنسى ان اساطيل سائر الممالك الفينيقية، العاملة لحساب الجامعة الأشّورية، قد استولت على قبرص.

وقبرص، احدى أجمل مستعمراتها القريبة !

أكيد ان ممالك الجامعة لا يسعها ان تمنع تدفّق البضائع الصورية على الجزيرة الخضراء. لكنها بمستطاعها، متى شاءت، ان تعرقل نشاط المراكب.

صور ساكنة ؟ نعم، سوى ان ناراً تتأكّلها من أجل استرداد الجزيرة الخضراء.

أتراها تعمد إلى القيام بعملٍ حربي ؟

انتصارها، إلى سنواتٍ خلت، على سلمناآصر الخامس جرى بحافز من العنفوان القومي وارادة الحياة. كان فكّاً لحصارٍ يخنقها، حرباً إذن دفاعية.

الاستيلاءُ على قبرص يستدعي عملاً هجومياً.

وهل هو في مقدور صور، وأشّور، سيدةُ الجامعة، لا تزال قويّة قويّة ؟

سياسةُ صور قائمةٌ على اعتماد الدفاع وعلى دبلوماسية مرنة وصارمة في آن.

على أن الأشّوريين هم انفسهم بدأوا الحصار...

ها هم يطوّقونها برّاً بجيوشهم العديدة، وبحراً باسطول الجامعة، وهي رابطةٌ مؤلفة من سِتَّ عَشْرة مملكة.

حصارٌ جديد !

جسّ إيلولاي نبضه فلم يجد فيه ما يُخيف مدينة البطولة.

وفي الليل أصدر بياناً إلى الرعيّة مفعماً بالامل.

ـ ثبت لعملائنا، قال الملك، ان الجيوش البريّة والوحدات البحريّة الي تطوّقنا ليست سوى خُمْسِ ما كانت عليه قواتُ سلمناًصر.

« بطولتكم عرفت يومئذ كيف تصمد للحصار، كما أن نَزْوةً منكم شريفة عرفت كيف تسدّد اليه، بعد أن وَهن، ضربةً قاتلة.

« لن أقول اصمدوا سنواتٍ، كما فعلتم، إنما أشهراً.

« ثقوا بي كما اثق بكم.

« صور لا تُغلب ».

كانت الملكة لا تزال في حدادها على بنتها رايشا الحسناء التي كقلب الصبح، بطلةِ فكّ الحصار. وأُثِرَ عنها انها لم تخرج من قصرها ولو لحضور حفلات النصر.

أما الآن، وقد بدا في الأفُق خطرٌ جديد، فقد شوهدت مع الملك تتفقد الأسطول.

وقال بعضُ الجنود إنها بَسَمتْ لهم. فقدّروا لها ذلك وراح هُتافُهم يشقّ السماء.

لم يخطئ إيلولاي في وعده بفكّ الحصار. وما انقضت ثلاثة أشهر حتى تراجع أسطول العدو فاقداً ثلثيه.

وتبعه الجيش البّري.

قويت شوكة إيلولاي وطار صيتُه في العالم. فجاءَه رُسُلٌ من قبرص يطلبون اليه أن ينتقل إلى الهجوم ليستردّ الجزيرة الخضراء.

وإنعقد البرلمان الصوريّ في جلسات اربع تقرر في نهايتها تقوية الجيش والاسطول تحسُّباً لعمل خارق.

قبالة الجامعة الأشّورية، التي تخضع لها سائر الممالك الفينيقية، ألا ينبغي إنشاء جامعةٍ أُخرى ؟

وهكذا وُلدت « العصبةُ البحريّة ».

تزعمتها صور ودخَلتْها صراحةً مصرُ وعسقلانُ واكرون. وكانت ارواد وبيبلوس وأشدود وغزّة وسواها من المتطلّعات إلى مشايعتهن.

وكانت الاشارة.

صور تحرّض الممتلكاتِ الأشّورية وتساعدها عسكرياً.

وتحركت أشّور. جرّدت جيشاً التقى المصريين امام اكرون فدحرهم.

كانت المعركة صاعقةً بحيث أثارت الرعبَ في ممالك شتى. ولمّا حَلَق الجيش الأشّوري حَلْقاً كل خيرات اليهودية، خفّ حزقياس ملكها يقدّم خضوعه لسنحريب الملِك الاعظم.

وفتَّ ذلك في عضد ارواد وبيبلوس وأشدود وغزّة، فتمنّعْنَ عن تقديم المساعدة السرية التي كنّ قد وعدن بها.

وهكذا بقيت صور لا يُساندها الا عسقلان واكرون ومصرُ المُصابة.

سوى أن العصبة البحرية، بالرغم من هذه التخلّيات، أبت أن تهادن. فقاتلت بدولها الاربع على جبهاتٍ شتى تمثل جيوش ستَّ عَشْرَة مملكة.

تفوُّقُ العدد لم يكن ليفوتَ أحداً.

أخيراً انعقد البرلمان الصوريّ على جناح السرعة، وثلثُ أعضائه، الذين هم زهرة شباب صور، متغيِّب في ساحات القتال، واتخذ قراراً بان يطلب إلى إيلولاي الملكِ البطل ان ينكفئ بشخصه إلى قبرص حيث أنصار صور متفوِّقون.

وقام وفدُ المدينة إلى خَطّ النار يطلب مقابلة الملك.

فلما علم إيلولاي بقدومهم أوجَسَ شؤماً. فأعلن أنه لا يقابل أحداً وأنه يفضّل الموت وسيفُه في يده.

حتى إذا قيل له: « إن في الوفد أحبار المدينة الاربعة » أذعن وقام إلى مقابلتهم.

راحت سفينة كبيرة تشق عباب اليمّ تقلُّ إيلولاي وعائلته إلى الجزيرة الخضراء.

وكان الجميع يعتقدون أن العبقريَّ الحربي سيعرف أن يتدبر الامر هناك، حتى تواتيه الظروف فيعلن الانتقاضَ واسترداد المجد المفقود.

الا أن إيلولاي، وقد توقّع أفولَ نجمه وحدَسَهُ حَدْسه بانه لن يعود إلى صور، القى في البحر، في المكان الذي احترقت فيه بنتُه البطلة، سيفَه الطويل الضخم بعد أن حفر عليه بالذهب آيةً بقيت سراً.

زعم بعضُهم انها تقول:

هذا السيف هو خليق بكِ، أنتِ الحية هنا، أكثر منه بي، أنا الميت هناك.

وذهب آخرون إلى انها تقول:

سأعود الى تجريد هذا السيف من جديد، بعد أن يكون قد بقي في حرز مَن لم تَتَخَلَّ عن خط النار.

والى قرون عديدة، بقي الفتيان من عُليا عائلات صور يغوصون كلَّ يوم في البحر، يفتشون عن السيف الذي يقال إن مَن يعثُر عليه يبني للمدينة الخالدة مجداً لم تعرفه مملكة.

الطائر العجيب

كان الطائرُ العظيم على وشك أن يصل. فاللبنانان في تهيّب. إذ لا يجوز أن يرى الطائرَ فِينِقْسَ أحد. ذاك الذي يعيش الفَ سنة ويفِدُ من قلب الشرق كلَّ خمسين أو مئة، ليحترق بالعنبر والطيب فوق هيكل الاسرار في لبنان، وبعد أيام ثلاثة يستعيد الحياة ليؤوب إلى موطنه في قلب الشرق.

كانت القُشَعْريرةُ قد سَرَتْ في التلال والسهول، وفي موج البحر. والناس واجمون يتبرّكون بدنوّ الهنيهة التي سَيَحُطُّ فيها فينقس على أرضهم، إلاّ ريسى، ابنَ الكاهن الاكبر في جبيل.

ـــ سأحدّق اليه، قال، سأسألهُ ما شأنه، هذا الطائر العجب ؟ ما حكايتُه ولِمَ يقصد الينا، نحن، دون سائر الشعوب ؟

هي المرة الاولى التي فيها يهتمُّ الشاب المزهوُّ بسرٍ من اسرار الدين. وانما تطوافه في المعرفة كان قد افضى به إلى برودةٍ في الايمان.

الا أن كاهن إيل شعر بمثل تجديفة تلطّخُ الجوّ، فلم يلبث أن أغمد النظر في عيني ولده :

ـــ بصرُك إلى الارض ولا تتفوّه بكلمة.

ـــ تُرهات ! قال الفتى الثائر، أريد أن أرى، أن أعرف.

كان، هناك، شَمعَدانٌ ضخم، مسبَّعُ الفروع، يقتضي تحريكُه عشرين رجلاً، فهجم عليه الكاهن بجسمانه الضخم وكَمَنْ أُعطيَ قوةً غير بشرية لكأه بكتفه، فسقط على الشاب وغيّبه.

فعَل. وراحت أبصاره تُخرس بسلطانها كلَّ استغراب وتمزّق الصرخة على شفاه الناس.

واستمرّت الحناجر تنطلق بالاناشيد، كأن لم يُقتلْ، بيد والده، أجملُ فتيان كنعان.

كانت رائحةُ العنبر قد تضاءلت، إيذاناً بان الطائر المقدّس أتمّ تضحية نفسه، والناسُ قد آبوا إلى بيوتهم من تلك الحفلة التي اصطبغت، هذه السنة، بالهول والدم، عندما انهار الكاهن على الشَمْعَدان المسبَّع ينتحب كطفل.

ظنّ أن أحداً لا يراه.

ولكن إيكايا، ذاتَ العينين الزرقاوين كسماء شامسة، كانت تطالعه بجُماع نيساناتها الستّةَ عشَر.

وعندما ركضتْ اليه ولفْتتُها أوسع من عينيها الضائعتين، أجاب عن سؤال لم تتفوّه به:

ـــ بلى، مات !

ـــ ولكن... انتَ، انتَ نفسُك، الا تقدِر ؟...

ـــ لا، لا يجوز لي أن أُلقي عليه من رَماد الطائر المقدس. رمادُ فينقس حيّ، ومن مسّه أيقظ الصاعقة.

فصرخت الفتاة:

ـــ أنا أمسُّه.

عندما عاد ريسى إلى الوجود كان قد خبِر سرّ الموت والحياة.

وخبِر أكثر: حُبَّ إيكايا، ذاك الذي يقيم من موت.

وفيما الكاهنُ ينتظر انخساف الارض بالمدينة، كانت الدنيا على خير حال، والعصافيرُ تملأُ الصحو سجعا.

في المساء، تحت ظلّ ياسمينة قصرهم، كان ريسى يناجي إيكايا:

ــ بتّ أؤمن بان الجمال وَحْدَهُ يحيي.

ــ لا تجدِّف، يا ريسى. لا يحيي الا ايل.

ــ ايل، قاطعها ريسى، وهذا الهدب المضيء.

ــ لا تقل، لا تقل، وانما احياكَ رمادُ الطائر فينقس.

ــ إيكايا، لا تهزِلي.

ولما سكتتْ أكمل:

ــ أنا لم أحصِّل العلم فقط في صور العظيمة. لقد ولدت في مملكة رَحُوب القائمة في السهل الأنيق بين اللبنانَيْن حيث أخذتُ الحرف عن أمي، واخذت عن كهّاننا كلَّ ما خبأته كتُبُ السِحْر. وانتقلت إلى مملكة معكة في سفح الحرمون، فالى جشور التي على تخومها، فالى يَطورَ الغنيةِ بالغمام والحكمة. ومنها يممت شطر ارجوب، فباشان التي على كتف الاردن اتزوّد منهما باسرار سير الكواكب. وجئت بيريت ذاتَ المكتبة الفريدة في اخبار الأمم وقصص التكّون. وكان لم يبق امامي من ممالك آرام

سوى جبيل عَهْدَ قصدتُ ـــ وانا لا ازال لهيفَ المعرفة ـــ معاهد صيدون الجميلة. هناك بذّلت الكثير من ثياب عقلي. ثم زرت على التوالي ممالك عكّا وأكشاف في سَفْحِ الكرمل، وحاصور التي على بحيرة الحَوْلة، وأفيف التي في الأعالي قِبالةَ الحرمون والجلجال وعيُّون أغبُّ من تحت تلك القباب الشامخة آخر كلمات المعرفة. وحملت نفسي إلى أرواد، صاحبة الارث البحري، فالى قَدَش على الأورونت آخرِ تخمٍ لارضنا حشدنا فيه ما نَمدُّ به العالَم من فكر وفنّ.

« سبْع عَشْرَة مملكة من ممالكنا عايشتُ علماءها فلم أفد ما ينقعُ من غُلّة.

« واذ يُلبّي ابي نداءَ جبيل متسلّماً كهنوتَها الاكبر، أُرافقه إلى الحاضرة الوحيدة التي لم أكن زرت، لا أملا بتهدئة قَلَقي بل نزولاً على ارادة والدٍ صَعْب سليط تساوى عنده الموتُ والحياة.

« وكدت اغرق، في جلال الطقوس الدينية، وأناقتها، وبخورها، وأنا لا اؤمن بان وراءها شيئاً. وتَمُرُّ بي عذارى كنعان وآرام كأنّهن دُمـى. وانتِ، انت نفسكِ، لم

اكتشف دنيواتِ عينيك الا هنيهةَ أمرتنا الحياة بان تقبّل جُثّتي.

« اليوم، اليوم... ما أدري... يكاد شيء من كياني يتزلزل ليُبنى من جديد ».

فقالت إيكايا:

« أصغِ، يا ريسى:

« اخذتُ عن جدّتي — أمرنِ نسوتنا خاطرةً وأوفرِهن حسناً — ان بلادنا كانت اوّلَ من عَبَد الإله الأحد، مبْدِع السماوات والارض، لأنه فيها انما بثَّ الحياةَ العاقلة، صبيحَةَ عهد الارض بالعقل.

« ولكنّه فرض على الخلائق فرائِضَ صعبة، تَعْدِل ما وعدَها به من مجد. وهكذا مال عنه أهلُنا وعبدوا مِنْ دونه ما هو صنعُ يديه: عجبوا للزمان، كيف يكرُّ ولا انقطاع، فألّهوه، ثم للشمس، كيف تعطي الحرارة التي تنمي الحياة، فجعلوها هي أيضاً إلهة. وحَسُنَ في اعينهم ذاك وهذا من أبطالنا والبطلات، فراحوا يؤلّهون ما شاء الخيال، فكان البعليم وكانت البعلات. واذا عدد من ممالكنا مشيدٌ على اسم هؤلاء: صيد — إيون، جب — إيل، بعل — بَكْ. اما

إيل المحبة فلم يبقَ عندنا من رحمته سوى وَعْد. وعدٌ بأن يجيء يوماً ويردّنا إليه ».

فسأل ريسى:

ــ يجيء هو نفسُه إلى الأرض ؟

ــ هو نفسه، ويعيش عيشتنا، ويكدح في الحقل كدحنا، يشقى ويموت ويُدفن في التراب، وفي اليوم الثالث يقوم.

ــ تماماً كما يقولون عن الطائر !

فقالت:

ــ ليس فينقس سوى رمز الوعد. ومن آمن بالوعد، قَبْلَ إتمامه، أحياه محضُ الايمان. الايمان حبٌّ. ولقد احياك فينقس على يدي لا لشيء آخر. اني مؤْمنةٌ اكثر من والدك الكاهن الاكبر، وهو الذي لم يكن ليظُنَّ ان الحُبَّ يُسكت الصاعقة.

« ولم تقُلْ جدّتي شيئاً عما اذا كان الوعد سيتمّ عندنا أو لا. ولكنها قالت إنه، تعالى، سوف يعتمد، يوم يجيء الأرض، بمياه من ثلج الحرمون، جبلنا البهيّ المحبّ، وهو الذي إنما أُقيم صلة إلى الابد بيننا وبين الآخرين ».

وظلّت إيكايا، تبثُّ هذا البثَّ، والمؤمن الجديد يسرّح

نظره على أجمل مخلوقة في كنعان وآرام، تلك التي لكثرة حُبّها أُعطيتْ أن تحوّر في نواميس الوجود: مسّت رماد الطائر فينقس وقالت للموت: « مُتْ » فمات.

عبرة نيل

كان داريوس قد لعِبَ بمقدَّرات العالم سحابةَ ثلثٍ من قرن.

أما اليوم فهو منطرح على فراشه والمعمور شاخصٌ إلى القدر ينتظر قولته فيه.

لقد خرج نرغالُ، كبيرُ الأطباء، من لدنه متهللاً باسماً. وسمعه الكثيرون يضحك.

ــ الملك، قال، انه لَيفضلكُم جميعاً عافيةً وإشراقَ وجه. ومرّة أُخرى سيكون على رأس الجيش.

فضجّ التَبَعُ فرحاً، وراحت حناجرُهم تهتف لداريوس.

وكان داريوس قد سمع قول كبير الاطباء، فأوجس شكّاً في هذه الثرثرة الجهْوَريّة.

أرسل يطلب عبدئيل، معلم ابن زركسيس فيما مضى، ونزيلَ قصرِهم دوماً.

ولكنهم تأخروا في المجيء به.

ـــ انه الحكيم الوحيد، قال الملك. كنتُ اعتمدُهُ في المُلمّات.

« عنده لكلّ سؤال جواب ولكلّ معضلة حلّ.

« وآونةَ يشُقُّ عليه أن يُجيب، يجد الكلمة المعزّية ».

وعاد الملك يصرخ:

ـــ الحكيم الصيدوني ! عبدَئيل ! أين عبدئيل ؟

واذا باحد الخدم ينطرحُ على الارض يعفّر جبينه.

ـــ تكلم، جأر داريوس.

ـــ مات عبدئيل، منذ اسبوع، ولم يشأ أحدٌ إبلاغ مولاي الخبر.

ـــ مات ! لقد قَلَّ النورُ في الأرض !

وأخذت داريوس غَصةٌ تحزُّ منه في الحلق والصدر.

ـــ كأسَ ماء، راح يهتف في مثل الهمس، كأسَ ماء.

فرفع احدُهم يديه إلى كُوْبٍ بلّوريّ، كبير، انيقِ اللفائف، وحمله كأنه حُقّ مقدّس، ثم بتؤدة راح يدفعه صوب شفتي الملك.

وما هي حتى خُيِّل اليه أن الملك يُدني منه لحظه بدلَ الشفتين. لكأنما عيناه هما العَطِشتان !

انهما لتكبران الآن. تكبران كثيراً. وتستدير حدقتاهما في مثل نجمتين تودّان لو تستوعبان الكون.

ــ هذا الكُوب ! قال داريوس بتهيّب، إنه هديّةُ الحكيم الذي ذهب.

وسكت.

اما حامل الكوب فلم يكن يدري ما يعمل: أيردّه إلى مكانه أم يُدنيه من ذلك الفم المرتجف، لا يشرب.

وظلّ في حيرته مسمَّراً، والكوب يتلألأ في الفضاء مسمَّراً هو أيضاً.

ها هو الماء يضجّ صفاؤه وسط البلّور. ويتجعّد من آن إلى آن، مُسمِعاً مثل نبضة قلب كلما ارتجفت يد حامله، ولحاظُ داريوس المُتعبة الذاهلة تتأرجح مع الأمواج الدقيقة كخطوط حلم.

داريوس الآن يرى في التماع البلّور وتحرّك الماء صداقةَ شابٍ شالتْ به من حضيضٍ إلى عرش، ومن عرش مملكةٍ إلى سيطرةٍ على الأرض جميعاً.

كانت فارسُ، بعد موت قنبيز، عرضة للفتن ولألاعيب المغامر غومادا. حتى اذا ثار الاشراف على غومادا وقتلوه ومثّلوا به، راحتْ كلُّ ولايةٍ تنادي بالاستقلال عن الجسم.

ــ داريوس، كُن جريئاً، قال عبدئيل، فرِّق بين هؤلاء الطُمّاع من صغارة، قل كلمتك قاطعةً كالسيف. المُلْك انه غداً صائرٌ إليك. جاهِدْ، جاهِدْ عاماً واثنين وعشرة إن اقتضى الامر. أخمِد الثورات في آرامَ وبابل، في ماداي وأرمينية وهركانية وأشّور وفرتية.

« ليكن لكَ بلاطٌ مَهيب يعكس مجدَك في القلوب. نظّمِ الجيش فيغدو أجمَلَ وأمجَدَ قوةٍ في الشرق. وليكن لك منه صفوة لا تُضارَعُ ولا تنقُص. وسمّها « الخالدين ».

« عمّر، عمّر دوماً. واعتمد العلماء وذوي الاختصاص. ولتكن اعمالُك آخرَ كلمةٍ في الحضارة.

« المُلْكُ لك، يا داريوس، بقَدْر ما تخدمُه. وبهذا القَدْر يَشيلُ بكَ إلى النجم

« لا تُلقِ سمعاً إلى الوشاة. وليكن لك أعوانٌ يريدون خيرَ الناس. خيرُ الناس هو وحدَه خيرك.

« إجعل لمملكتك شرايينَ توزِّع الحياة: مواصلاتٍ تربط اطرافها بالقلب. وأمِّن للحواضر العريقة، كصيدون وصور، تلك المنسلكة في عقدك، مجال اعتزاز وعنفوان. إجعل نظامك معها بمثابة حِلْف. وعليك بالحب ! الحبّ وحدَه يأسرُ الناس.

« افتح. طِرْ بفرسانك ومُشاتِك إلى الهند. إنّهم أشداء ولا يعُوزهم طموح، والتجارةُ حوّلها إلى شعبك لا اليك. طِرْ إلى اليمن، إلى البوسفور، إلى البلقان.

« ها أنتَ السيّد من الدانوب إلى الهندوس. ولكن هل قام ملْكُكَ على محض امتشاق السيف ؟ لا. وانما على الرأي السديد أيضاً.

« امضِ في ترقية شعوبك. امضِ وليشعرْ كلّ فرد من رعيتك بانه اليوم متحضّر اكثر منه بالامس، وغداً اكثرَ منه اليوم.

« اسطول الصيادنة هو لك. ملكتَ البر فاملُكِ البحر.

« ضَرَبَتْكَ العاصفة ــ حليفةُ الثائرين عليك ــ عند جبل أتوس، مغرقةً لك ثلاثمئة سفينة وعشرين الفَ رجل.

لا تأبه. هاجم الايونية، أهدم الارترية. وستدحرك قبضة من ابطال الاغارقة في ماراتون، وتثور عليك اجبتيا. اضرب اجبتيا وارتدّ إلى الذين قاسوا انفسهم بحلمك الكبير في ماراتون ».

وصرخ داريوس وكأنه يُحشرج:

ــ والآن أين ؟ أين الصوت الذي كان يقودني إلى كلّ هذا المجد ؟ اين دليلي إلى الايونية، فأرتُقَ ــ على عادتي ــ ما تفتّق من رقعة مملكتي الواسعة.

« عبدئيل ؟ اين وجهُ عبدئيل يلْتَمع لي في هذا الحَلَك المتكاثف ؟

« بلى بلى، ها هو الحكيم الصيدوني يتراءى لي. في هذا الكوب امواجُ بحرٍ كبير. هذا عبدئيل يجذّف مندفعاً إليّ على مركب مثلّث المجاذيف. على واحد من تلك الطُرادفات التي لا تُصنع الا في صيدون حاضرة الحواضر.

« عبدئيل، إليّ يا عبدئيل، إليّ إليّ ».

ولكن حامل الكوب كانت قد نفدت منه القوى واشتدَّ رجفانُ يديه، فسقط الكوب من بين اصابعه متحطماً وكأنما يوجع الحضيض.

لم يبق أمام عيني داريوس كوب صيدونيّ يلتمع، ودّع داريوس النور.

قنبيز الإلهنا

ــ معتَمَدُ صيدون... معتمدُ صيدون... تعرف أنه لا أَحَبَّ عليّ من استقبال معتَمد صيدون.

ــ ألا جعلتنا الآلهة خَليقين بهذه الثقة.

ــ إقتعد هذه الطنفسة هنا، إلى يميني. انه المكان الذي لملك صيدون منذ والدي العظيم.

ببساطةٍ عريقة نزل الصيدونيُّ على رغبة قنبيز، مكتفياً بأن شَكَر له بانحناء رصين وابتسامة صادقة.

ــ كيف كانت الرحلة ؟ سأل الملك، هل تضايقتُم في الطَريق ؟

ــ لا أيها المولى ولقد اقلّتني السفينةُ إلى مصر مباشرة.

ــ والبحرُ ؟ هل كان سَلِساً ؟ ولكن الصيادنة لا يعرفونه سلساً أو غاضباً. انه عبدُهم منذ الازل. أو ليس هذا ما تقولون ؟

ــ غدوتَ تنظم الشعر، ايها المولى.

ــ تظن. ومن يدري ؟ ولو انني دخلت مدارسَ صور منذ الطفولة لكنت برزتُ شاعركم ألْشِبني...

قالها وراح يضحك.

ثم استطرد وهو لا يزال يمهّد ويؤخر لولوج الموضوع الذي من أجله استدعى معتمدَ صيدون:

ــ أكيدٌ ان الصوريين يحبوننا. يا للشَعب الوفيّ.

ــ اجل، ايها المولى، وهم لا ينسَون ان والدك قورش هو الذي ساعدهم على لمّ شملهم وعلى ترميم مدينتهم العظيمة.

فيقول قنبيز:

ــ حقاً. اكاد لا أصدّق عناد نبوكدنصر. مدينةٌ تصمُد لحصاره ثلاثَةَ عَشَر عاماً... حتى اذا سقطت أعمل فيها السيف.

« كان عليه ان يعامِل الصوريين كأنداد أكفاء.

« لسوف يكونون سبَب مجده يوماً. سيقال: كان عظيماً لأنه تغلّب على الجزيرة التي لا تُغلب.

ــ صحيح أنك غدوتَ شاعراً، أيها المَولى.

« ومهما يكن فعلائقُ صور وصيدون بملك الفرس هي في مستوى إلحِلْف الذي يُسبغ نِعَمَه على الطرفين.

« وعندنا أنّه كان عهدَ سعد ذاك الذي أحَلّ والدكَ على عرش الميديّين، ثم نصره على مملكة ليديا فعلى ايران وبكتريان وأخيراً على بابل.

« لقد وطّد والدُك مُلْكاً قلما دان لذي تاج ».

قال، وكأنما اثار قوله هذا كوامن تتأكل صدرَ الفارسي:

ــ ولكنّ والدي مات يحزّ في قلبه نقلُ الحرب إلى بلادِ الاغارقة، فإلى...

ــ إلى أين ؟ قال معتمد صيدون.

ــ إلى مصر.

فأكمل المعتمد يسأل:

ــ إلى مصر وحسب ؟ هذا أنتَ سيّدُ النيل.

قال قنبيز:

ــ أجل وكان ذلك بفضل أُسطولكم.

« إن كلّ ما خَصّ به والدي ممالكَكُم من رعاية واصلاح وابقاءٍ على سيادة، لا شيءَ ان هو قيس بعونكم البحريّ لي.

« ولكن أجب، يا عزيزي المعتَمَد، إلى أيّ حدّ ستبقون نصراءَنا ؟

ــ حرابُنا حرابُكَ ايها الملك، وحِلْفُنا مع فارس سيعمل أبداً. وسيضرب سيفُنا إلى جنب سيفك لا يستثني احداً إلا ربَّنا وأنفسَنا.

ــ ربُّكم: انني سأقدم له الذبيحة التي تقدّمون. اما « انفسُكم » فمن تقصد بها ؟

ــ واضحٌ أنا، أيها الملك، وهل يُطلب من صيدون مثلاً أن تقتتل ؟ هل لأحيائها البحريّة أن تضرب شوارعها البريّة، كلا وايمُ إيل.

فحسر قنبيز عن وجهه قناع الرياء، وصرخ يستعلم صراحةً عمّا قصده المعتمد الصيدونيّ من تلك الأقوال:

ــ اسمع، يا عزيزنا معتمد صيدون، أُريد أن أعرف ما قرطاجةُ منكم ؟

ــ قرطاجة؟ إنها حيّ من أحياء صور.
ــ أُسكُتْ.

ولكن قنبيز قالها وندم.

ــ أتوسّل اليك، ايها المعتمد، أتوسّل إلى صيدون وصور العظيمتين، حليفتيَّ أنا بعد أبي، وصديقتيْ بلادي على الدهر، وأجمل درّتين في تاج مَلِك، ان تتداركوا سمعتي. لقدْ تحطّمْتُ، يا سيدي، هُزمتُ شرَّ هزيمة في الحبشة. معنوياتي تزعزعت. أعدائي في سُوس شامتون بي. لا يُنقذ شرفي سوى الاستيلاء على قرطاجة.

ــ ماذا تقول! نرضى عنك في مهاجمتك قرطاجة؟!

ــ وتساعدوني أيضاً.

فشكّ الصيدونيُّ غير قليل. ثم وقف ومشى إلى الباب. حتى إذا بلغه ارتَدّ إلى الملك وقال:

ــ لا، ولسوف تكون وحدك بعد اليوم، يا قنبيز. والذي بيننا من حِلف. ها أحد الطرفين ينقضه. كان حلْفاً جميلاً. قرطاجة بنتُنا، يا قنبيز، قرطاجة لن تكتَحِلَ بمرآها عيناك.

على قبر الحبيب

قبل أن تولد، كانت إلزا خُطبت إلى رَفْئيل.

كان كبيرُ الشيوخ في صور قد لفظَ، يوم المصالحة بين بيتيهما المتنافسين على التاج، كلمةً لم ينسَها أحد:

ـــ إن أُعطي المَلِكُ بنتاً فتكونُ عروساً للامير رفئيل.

ويبدو ان إيل تعالى استجاب الدعاء، فرُزِق الملك بنتاً وسُميّت إلزا.

كان شعرها كضوء القمر، وكانت عالية الخصر، مشيقةَ الأنامل، حتى لقد سُميّت، يوم دخلت أول مرة إلى ندوة الشيوخ، « القامةَ المغنية ».

كانت تعرف أن رفئيل أُعدَّ لها قبل أن تولد، فلا تُفكّر في ذلك إلا لِتُرسل ضحكةً مُبهمة عجزت صويحباتُها عن إدراك ما تحملها من معانٍ.

أتُراها مزهوةً أم هي هازئة ؟

الا أن رفئيل كان بهيّ الطلعة. أوّل فرسان صور إن عُدّ خيّالتُها، واجلدُهم على مواجهة الجلل إن تأزّمت الحال او تنافس الفتيان في التقشّف، وهو مذهبٌ فكريّ طلع به فيلسوف من جبيل وعَمّ طبقةَ النُبلاء في ممالكِ كنعانَ وآرام.

وفيما شهرةُ رفئيل تتعاظم، كانت السياسةُ تُباعد بين البيتين. حتى اذا بلغ الفتى التاسعة عشرة كانت الأسرتان على وشك امتشاق السيف.

هو رفئيل لا يلتقي إلزا إلا عَرَضاً، وقَل نادراً. تكلّمهُ بقدر ما يكون أبوها الملك قد حدّ من حدة غيظه على بيتهم.

وأخيراً كانت أشهُرُ انقطاع.

ــ حُلّت الخطبَةُ نهائياً، رددت إحدى ثرثارات البلاط.

ففهمت المدينة انه تصريحٌ كافٍ.

وذات ليلة، فيما البحرُ يصخب والسماء تهطل ميازيبَ تكاد تجرف حتى القصور المنيفة، كانت دارَةُ رفئيل الخاصة ـــ وهي على الرابية، خارج المدينة، في غابة صنوبر يؤمّها مع رفاقه ايام الصيد ـــ تسمع طرْقاً على الباب.

ـــ مَنْ ؟ سأل رفئيل.

ـــ أنا إلزا.

ـــ إلزا !

وهَبّ اليها بقلبٍ مشلّع.

ـــ لا شيء، قالت، جئت لأطلب منك أن تهرب. انكشفت مؤامرتُك على الحُكم. نعم ستُحالون إلى القضاء، لكن العدل سيكون رهيباً ! رفئيل إنّ لك في قلبي فوقَ ما تظنّ.

قالتها وانسلّتْ كطيف.

الثورة لم تكن مهيّأةً كفافاً. لكن أحد قوادها شعر بأن السرّ انفضح فاستعجل اعلانها على غير علم من رفئيل قائدِها الاعلى.

وسقَطَ ضحايا كثيرون، وقُصد جيشُ صور. ولكن السيف الثائر تحطّم.

امتلأ سجْنا المدينة بالأشراف. اما العامة فقد جُعلوا في معسكر وثُقّلوا بالقيود.

والتأمت محكمة الثلاثين.

لم يكن هناك ادّعاءٌ عام. كان أحدُ القُضاة يتبنّى التهمة، فان لم تَثْبُت امكن المتّهَم ان يعود عليه مُطالباً بتعويض عن الشرف المهان.

ــ اسمُك، جأر كبير القضاة.

فلم يتلقّ جواباً.

فتوجه إلى مدّون الوقائع.

ــ أكتب: رفئيل بن أربا، عمره احدٌ وعشرون عاماً، أجمع أربعةَ عشرَ شاهداً على انه هو مدبِّر الثورة.

وإلى رفئيل:

ــ سأتولّى الأجوبة عنك. متى أُخطئْ تقاطعْني. انني حريصٌ على خدمة الحقيقة.

واستطرد:

ــ ثَبَتَ أنك كنْتَ تُفسد المواطنين فرداً فرداً. تقول

لهم أن الحكم لا يصلح لأنه لا يؤمّن لصور نهضَةً خليقة بصدّ الاغارقة إن هم هاجموا، وانه يجب خَلْعُ المِلك وفَضّ المجلسين واحتلالُ دارَيْهما.

« وثبت أنك كنتَ تُلمع إلى عدالة رادعة. وسمّيتها أحياناً فقءَ أعين الملك والملكة وبِنتهما الأميرة إلزا، خطيبتك السابقة. انك ستنكر ؟

ــ لا، قالَ رفئيل، وجرحاً لمن وراءَك لن انكر.

ــ صحيحةٌ التهمة ؟

ــ صحيحة.

فسَرَتْ قشعريرةُ اشمئزاز في وجوه القضاة ولم يَبْقَ فردٌ يَعطِف على الأمير المتهم.

أبينكم واحد، قال الرئيس، لا يجرمّه.

ــ كلاّ ! صرخ الجميع بصوت واحد.

ــ إلا أنا، قال رفئيل، أنا نفسي لا أُجرِّم نفسي.

المتكلم ابنُ بيت عريق في الحكم، وذو حُرمة فوق الوصف حتى ليُعَدَّ الانوفَ الأول في صور. ثم هو شهيَر التقشّف، لم يُعْرفْ انه شَرِبَ خمراً أو تحرش بامرأة أو اغتاب أحداً أو نطق لسانُه بكَذِب.

ــ تشهد لنفسك، قال كبير القضاة مستهجناً.

ــ ولِمْ لا ؟ أولا يحقّ للمرء أحياناً أن يخوضَ في نفسه ؟ متى خُيّل ان الواقع هو غير ما هو فعلى الذي يتضرّر أن يردَّ الواقع إلى السِراط.

« أنا لا أدفَعُ عن نفسي التهمة خوفاً من موت. الموت ؟ لقد غدا أحَبَّ اللذائذ اليّ بعد أن أصبحت بلادي سِجناً وأماني أمتي معفّرة بالتراب.

« سأروي لكم الحقيقة لا لشيء إلا لذّةً بالحقيقة. وأرويها كذلك لتجنيب العدالة الشطط.

« عدالة صور، لا يجوز لعدالة صور أن تخطئ.

ــ رُدَّ التهمة المنسوبة إليك، قال كبير القضاة متبرّماً ولا تُلق علينا درساً.

ــ ومن أكثرَ مني، مَن يحقّ له القاءُ درس ؟(عُذْراً، أيها القضاة، على هذا الذي يبدو تبجّحاً). إن قول الناس فيّ إنني لا أكذِب لهو كل ما اقتنيت في حياتي. صحيحٌ أنني لا أكذب.

ــ تقولها أنت، قال أحد الثلاثين.

ــ وأنتَ أيضاً، قال رفئيل، لو رجعتَ إلى ضميرك.

فظَنّ الحضور ان القاضي سيرُدّ بأعنف.

ولكنه سكت.

فتابع رفئيل:

ــ على جوابك، يا سيدي القاضي، يتوقف مُضيّي في الكلام. قل الا تعتقد في قرارة نفسك انني لا أكذب ؟

فأجاب القاضي:

ــ بلى.

وَصفّق الحضور.

وبعضُ القضاة.

فقضم كبيرُهم رُدْنَ ثوبه وراح يعلن انهم ليسوا في مرسح.

ــ أتِمَّ، أيها المتهم.

ــ لن أتوقّف عند قولك، يا سيدي القاضي، انني كنت اعتزم فقءَ اعين الملك والملكة وخطيبتي السابقة. التهمة لا تليق بشمائلنا نحن الصوريين. سأخوض في ما هو جدّي: لقد نظّمتُ الحزب الذي عاد فقام بالثورة. وكنتُ في ضميري أعدُّه لها. ولكنني لا أعرف كيف أُعلِنتْ وأيٌّ من رفاقي كان المحرض.

ـــ ونركال ؟ قال كبير القضاة.

ـــ يستحيل. لقد مات الآن. المحرّض... المحرّض يجب أن يكون آخر. سِرٌّ لم أهتد اليه بعد.

ـــ ولن تَهتَدي. ليس ذلك في مصلحتك.

ـــ بلى، يا كبيرَ القضاة، لأنّه في مصلحة الحقيقة.

فشهقت امرأة بالبكاء إعجاباً بجواب رفئيل.

فأُخرجت:

ـــ تعترف إذنْ إنك كنت تضمر الثورة.

ـــ نعم.

ـــ وتعترف ان الحزب الذي ألّفتَ كان لهذه الغاية.

ـــ تماماً.

ـــ أتعرف ماذا يترتّب على هذا ؟

ـــ تحاكمني، يا كبير القضاة، بتهمة إعلاني الثورة. اطلبُ تبرئتي من ذلك. وبعد فليتقدم منكم مَن يتبنّى الدعوى عليّ بأنني ألّفتُ حزباً غايتُهُ الثورة. عندئذ لربما رحتُ أنا نفسي أجرّم نفسي.

فارتبك كبير القضاة.

وأوقف الجلسة.

واختلت المحكمة تتذاكر.

إلا أن صياحاً سُمع من داخل قاعة الاجتماع، وطال التشاور ساعات.

وعندما عادت محكمة الثلاثين إلى الانعقاد تلا كبير القضاة حُكماً طويلاً خَتَمه بإدانة رفئيل والحكم عليه بالموت صلباً.

ــ ما على هذا اتفقنا، قال أحد الثلاثين.

ــ بلى، أجاب كبيرُ القضاة، كنت أنت قد خرجت أوان اجمع القضاة على الادانة وعقوبةِ الصلب.

ــ كنتُ قد خرجت! في حضوري لم يكن الاتجاه هكذا. ان في الأمر لَلعبة! في الأمر ما يمسُّ شرف العدالة في صور. ان لم يُفضَحْ ما جرى في غيابي...

ولكنّه لم يكمّل. توجه اليه احد الحَرَس بطعنةِ حَربة صرعتْه للتوّ.

والتفت كبير القضاة إلى رفاقه كانما يحذّر من عاقبة مماثلة.

ــ ما قُضي به قُضي، قال، وسنَفتَح تحقيقاً في السبب

الذي أهاب بهذا الحارس ان يعتبر المحكمة أُهينتْ.
ليوقَفِ الحارس.

فقال رفئيل:

ــ لا حاجةَ إلى ذلك، بل لتُوقف السياسة التي خلفكَ وخلف حربتِهِ. ماتت العدالةُ في صور.

في اليوم التالي، في اوائل الليل، عندما أُنزلت جثة رفئيل عن الصليب ودُفنت تحت شجرة صنوبر، لم يكن هناك سوى ثلّة من جند، وحفّار قبور، وحامل مشعل.

ولكن صور باسرها راحت، كل يوم، في مثل الساعة التي شهدت صلب البطل، تتجمّع على قبره تكدّس جبلاً من ورد.

ولم تَكِفَّ حتى شوهدت إلزا، بنتُ الملك، جثةً على قبر حبيبها، وقد كتبت بدمها:

« كفارةً عن ذنب والدي، وبَعْثاً للعدالة في صور ».

يوم تموت الحرية

الليل حالكٌ وثقيل، يتناقض مع وجه نبوكدنصّر المتهلل الأسارير من فرح، فيما الغازي البابليّ يتجه إلى حُجُرات بعل الثاني ملكِ صور.

قصرُ الملك واسعٌ، جمّ الأقسام. نزل منه البابليُّ الجناح الغربي المعرّض لنسيمات الغرب. جناحٌ ضخمُ القباب والاعمدة مشيقٌ، على أنه مفدَّغ هنا وهناك.

كان نبوكدنصر إن شاء رؤية بعل الثاني أرسل يستدعيه.

سوى أنه، في تلك الليلة، شاء ان يعامله كملك. فقصدَه بنفسه ولكنْ دونما إشعار.

كان يرافقه تابعٌ له يتلفت دوماً بحذر، كأنما يتوجّس الشرّ في الجزيرة العدوّة المغلوبة.

ـ إفتح. أنا نبوكدنصّر، جأر البابلي في وجه الحارس الواقف على باب حجرات الملك.

فردّ هذا بحربةٍ سدّدها إلى صدر المتكلّم.

ـ أنا نبوكدنصّر.

فركض على الصوت ثلاثةُ حراس كان واحدهم كهْلاً ناضجاً، فأدرك خطورة الموقف.

ـ خفّف من حدتك، ايها المولى، هذا الحارس مأمور. لا يُدخَل قسرا الا على جثّته. كان بالإمكان اشعارُ ملكنا قبل الزيارة.

ـ مَلِكُكُم ؟ إنه صنيعتي.

فجمَد الحرّاس الأربعة لهول الكلمة، وكاد الدَمُ يطفر من أعينهم. وتُبودل صَمْت.

وبعد لأي قال الحارس الثالث.

ـ عبثاً، أيها المولى، تحاول رؤيةَ المِلك الليلة؛ لا نحن بوسعنا الدخول فنعلنَ قدومك ولا أنت في مستطاعك اجتياز هذه البوّابة.

ـــ ماذا ؟

فتقدّم منه أصغر الحراس، وبوجه كلُّه إيناس قال:

ـــ عفوك، أيها المولى، أمامك أربعةُ جنود عازمين. الأمر خطير.

فأُعجب الملك بجرأته المفرغة بكياسة بالغة، وراح يردّد:

ـــ والعملُ الآن ؟

ـــ تعود إلى حجُراتك مكرّماً ريثما يَطلعُ الصبح.

فضحك نبوكدنصّر ثم ربّت على كتف الحارس الفتى وقال:

ـــ بوسعنا أن نتحدّث ؟

ـــ انه لشرفٌ لي عظيم. لِم لا ؟ وأنا لست الآن في الخدمة الفعلية. رديف، ولم يحن موعدُ عملي.

فأخذ الملك يقهقه ملءَ شدقه. ثم مشى يلتفت بين حين وآخر إلى مرافقه الجديد.

وإذِ ابتعدا عن القصر قال الملك:

ـــ أتعرف أن منعَكُم إياي من الدخول على سيدكم سيجر عليكم الوبال غداً ؟ أومنّي تخْمون صنيعتي ؟

ـــ منك أم من سواك... نحن نحمي ملك صور.

ـــ ايتو بعل الثاني خُلِع وما بعل الثاني هذا سوى صنيعتي. صنيعتي اتسمع ؟

ـــ تظنّ. ومَن وَليَ عرش صور ارتفع إلى مستوى العرش. لربما كان كما تقول. ولكن قبل ان رَقِي العرش.

ـــ قل لي، قاطعه نبوكدنصّر، أكلُّ حراس المَلِك مثلَك أمانةً واعتداداً ؟

ـــ إنهم زَهْرَةُ نبلاء صور.

ـــ أعرِضُ عليهم أن يصبحوا حرساً لي في بابل. انني لأُسعِدُهم حتى حَفدَةِ حَفدتهم.

ـــ تهزل، أيها المولى. هؤلاء ينذرون انفسهم للخدمة، فيطلّقون الغنى إلى الأبد.

ـــ والمجد ؟

ـــ لا مجدَ فوق مجد الخدمة.

أصبح الحارس صديقاً لنبوكدنصّر، فراح البابليُّ كلَّ ليلة يطلب إلى بعل الثاني ان يبعثه اليه ينادمه.

ـــ تظنُّ، أيها الفتى، انه كان بوسعكم الصمود أكثر من ثلاثَةَ عَشَرَ عاماً ؟

ـــ لِم لا، ولكنّا صمدنا بوجهك إلى الأبد لو أنه كان على عرشنا مَلِكٌ شاب.

ـــ ولماذا لم تفَكّر تفكيرك هذا أروادُ وجبيل وصيدون ؟

فهزّ الشاب كتفيه:

ـــ ممالكُنا تلك تلعب لعبةً خطرة. تريدون أن يكون لكم أبداً أُسطولٌ في المتوسط فتسترضونها بكل ما تريد ـــ بالنار ان لزم الأمر ـــ لتظلوا سادة عليها، وعلى سفنها. ولكن لمصر المطمع نفسه. وهي مثلكم تعرف ان تُغْرَم بنا. بوساطتنا تريدون القفزَ إلى وادي النيل. المصريون يؤمّلون ابقاء هذا المفتاح بيدهم. وتستغِلُّ كلَّ هذا نزعةٌ تجارية في ممالكنا، فتجد في « تسوية » معكم ـــ وقل في « خنوع » أحياناً ـــ مزرابَ ذهب. ممالكُنا جميعاً تلعب لعبة المال الخطرة إلا صور.

« حاربَنا المِصريّون قبلكم، فالاشّوريون الذين مات منهم بحسرتنا غير واحد من الفاتحين الأبطال. ودمّرتمْ انتم أشّور فورِثتم عظمَتها، وفتّحَها، ومعهما متعبةَ صور.

« ممالكنا يوم ماتت أشور رأت ـــ بغبطة ولا شك ـــ أن تسقط في قبضة المصريين، لأنهم كانوا قد بدأوا عهد

سالي الكثيرِ لعمران، الكثير المهمات يكلُها الينا، فإذا عمائر مصر في هذه النهضة يحتكرها مهندسون وصُنّاع من عندنا.

« نعم ما بقيَتْ مصر في آسية بقيَ بعضُ ممالكنا خاضعاً لسياسة مصر. ولكنّ مصر بأسرها كانت مَصْرِفاً لشعوبنا.

« وكانت معركة كركميش فاصلة: طردتم مصر من آسية، وأقبلتَ أنتَ تحتَلّ أورشليم وتجلو اليهود إلى بابل. وتحاول مصرُ استرداد مركزها بمساعدتنا، فتُقبل أنت هذه المرة عازماً، تجود بمعظم قوتك وقوى غيرك...

« سقطتْ كلُّ ممالكنا في قبضتِك إلاّ صور. هذه التي رحتَ تجمد عند أسوارها ثلاثَة عَشرَ عاماً.

فقال الملك:

ــ أجل ثلاثة عشر عاماً. وفي النهاية ؟

سكتَ الملك قليلاً، ثم بدا على جبهته مِثْل تجعد يرتجف، وجحظت عيناه محمرّتين وصرخ بالحارس الشاب:

ــ وفي النهاية، حطّمتكُم حتى لقد كشحتُ اللحم عن العظم: أعملتُ فيكم النار والسيف، بعتُ من يُباع منكم

عبيداً، فرضتُ عليكم الجزية تدفعونها قاصمة ظهر، خلعتُ ملككم المعتدّ واستبدلتُه برجلي وولّي نعمتي. أصحيح كل هذا ؟

ــ صحيح، أيها الملك.

ــ والآن، لأول مرة في التاريخ، في يد فاتح هو أنا، سقطَتْ صور الجزيرة.

فصرخ الحارس:

ــ صور الجزيرة تقول ؟ من يُصدّقك يا نبوكدنصّر ؟

ــ عيناك تصدّقان. قُم، قم إلى هذه النافذة وانظر:

« لم يبق بيتٌ سويّ، ولا سفينةٌ عليها شعار صور، ولا حسناءُ لم أبعها رقيقاً. أُنظر انظُرْ أوَلا ترى ؟

وانتظر الملك الجواب. ولكن الشاب راح يضحَك ملء فمه. فالتفت اليه نبوكدنصّر، فإذا الدمُ يخضّب وجهه.

ــ ماذا ! فقأتَ عينيك ؟

فقال الشاب:

ــ لم لا ؟ أو تريدهما تخالفان الدهر ؟ الدهر، منذ مولده، لم يَرَ صور الا حرّة.

« بلى يموت النور في عيني الصوريّ يوم تموتُ الحرية ».

الذَّرِّيّ الأوّل

ذاتَ أُمسيةٍ واهجة من عام ١٩٤٨، وقد انعقد مؤتمر الاونيسكو في لبنان، كان احدُ الاعضاء الاسوجيين يزور صيدا. وأوّل ما التقى انساناً، فاجأه بالقول:

ـــ هل تعرف ؟ أنتَ من صيدون !

كان الصيداوي شاباً مثقّفاً، فدخل في روعه ان الرجل معنيٌّ بالآثار أو التاريخ القديم.

ولمّا تعارفا:

ـــ لا، ما إلى صيدون البطولة أنا قاصد، ولا إلى التي أعطت العالَم اجمَلَ دساتير الحُكم، أو كانت ذات يوم

مدينةَ الذوق تتحكم بالزيّ: تلبس وتصيّغ بناتِ القادة والملوك. وانما انا قاصدٌ مدينة موخوس.

فاذا بالصيداويّ، على ثقافته، لم يكن قد سمع بهذا الاسم.

فعَجِب الاسوجيّ.

قال الشاب:

ـــ حقاً، يا سيدي، أنا خَجِل: لست اعرف موخوس ولا ما اذا كان شاعراً أو قائد اسطول.

فقال الأسوجي:

ـــ انه دماغ استبق كل الادمغة. واذا نظريته، وهو من القرن الثاني عشر ق. م.، تسيطر على علوم القرن العشرين جميعاً. انه أول ذرّيّ في التاريخ.

فقال اللبناني:

ـــ تعلمنا في المدرسة ان اول ذرّيّ هو ابن مدرسة أبدير اليونانية: لوسيب. ومن بعده ديموقريت.

ـــ لقّنوكم درسا غير مُوسَّع. ولو انكم واجهتم مبحثا في علم الذرة، رصينا وعميقا، لكان لكم ان تقفوا على حدث به يفخر لبنان ويُدِلّ على العالم.

« لا يختلف اثنان في أن ديموقريت الأبديريّ أخذ عن

لوسيب، ولوسيب أخذ عن التقليد الذرّي الراقي إلى موخوس الصيدوني.

« هذا ما تُعلّمهُ الكتب اليوم في أوروبة وأميركة جميعاً وفي اليابان ».

فاطرق اللبناني. مرّةً اخرى. واستطرد الاسوجي:

ـــ هل لك بأن نطوّف معاً في موطن موخوس؟ وددتُ ان اكشف ولو كلمةً، ولو حرفاً، على المفكر الذي التمعتْ له قبل اي آخر أجرأُ خاطرة مرّت ببال.

فقال اللبناني:
ـــ عندنا في صيدا معاهدُ عِلْم فهل تريد ؟...

ـــ لا لا، دعنا من معاهد العلم. انها تنقل ما في الكتب. وفي الكتب ما من طائل أمر عن موخوس. خذني إلى اوساط من لم يَدْخلوا المدرسة. لعلهم لا يزالون يتناقلون بعضَ الحكايات عن الذّرّي الأول.

وبعد هنيهة كان الاثنان يتجهان إلى المرفأ وتروح تسيطر عليه، اكثر فاكثر، جلبةُ صيّادي السمك ومتشيطنةٍ صغارٍ يتصايحون.

ـــ هؤلاء، قال الاسوجي، هؤلاء وددتُ لو اتكلّم لسانهم.

قال الصيداوي:

ـــ سَلْهم ما تشاء وأنا أترجم.

قال الاسوجي:

ـــ عبثاً. ينبغي لي أن أتعلم لغتهم. لغة كلّ يوم. لغة حبهم وشقائهم: حكاياتهم المتوارثة، وأحلامهم التي تدغدغ المخيّلة الخام. سِرّ موخوس؟ انه دفين ولا شك في طيّاتِ ما به يتصايحون، أو يقصّون أمام الموقد في الليالي الشاتية عندما تضجّ العاصفة ويكاد البحر يأتي على الأكواخ.

وكانا قد اقتربا من أربعةٍ جلس كبيرهم على حجَر عالٍ وراح يكمل سَرْد قصة:

ـــ « ... وذات يوم ماتت الحبيبة! ».

ولكنّ الشاب اللبناني لم يرَ في حديث الحب هذا ما يهمّ عالماً يفتش عن سرّ الذي قال ان المادة ذرّات.

وتمرّ سنوات.

وإذا الصيداوي يلمح بين متصايحة المرفأ وجهاً يعرفه ولا يعرفه. ولكنه أشاح عن الفكرة متسائلاً: ماذا! افي

المعقول أن يكون الاسوجي تعلّم لغة تُحكى في لبنان ولبس الأسمال البالية وراح يشاطر هؤلاء الاشقياء ضناهم وتشرُّدهم، ليهتدي منهم إلى شتات قصة ضائعة تدور على مفكر من القرن الثاني عشر ق. م. ؟

وتمرُّ أيضاً سنوات.

وإذا الصيداوي يُصغي إلى اذاعة أسوجيّة:

— ستستمعون، يقول المذيع، إلى قصة موخوس اول ذرّيّ في العالم. انها عجيبة بقدر ما هي موجعة.

فأصغى اللبناني. أصغى بكل جوارحه.

« وُلد موخوس في صيدون، حاضرة الثقافة الأولى في العالم الفينيقي.

« هو شاب فقير، ماتت حبيبته فجأة، وقد كانت بنتَ كبير في المملكة، تجيئه خلسةً في العشايا الواهجة مأخوذةً بطلعته الفارعة وتخيّله الجريء الطريف.

« فشقّ عليه موتُها، حتى ظنّ رفاقُهُ أنه سينتحر.

« ولكنه لم يفعل. وانما راح طوال عمره يتفكّر في الموت.

« ما الوجود ؟ كان يردّد، هناك العَدم الطاغي على كلّ

مكان، كُلّ مدى. من العدم يقوم الشيء برحلة إلى الوجود. أوّاه هذه الرحلة ! لو أضع يديّ على معميّاتها. الشيء ! حتمٌ عليه أن يكون قد بقي فيه جزء من العدم، من طبيعته الأولى. جُزءٌ اقول ؟! ولكنه جزء يُذهل. العدم كهذا الفضاء، ولا بد، والشيء كهذه النجوم: رؤوس دبابيس في وسادة كبيرة كبيرة. هذه الأشياء التي نرى نظنّها كلّها جماداً بجماد. من قال ؟ انها اكيداً كحياتي أنا: من عدم هي اكثرَ منها من وجود. انا ! قد أُعمِّر. قد أُعمِّر طويلاً، ولكن حياتي فراغ. بحرٌ من فراغ يدور فيه وجودٌ ضئيل. يوم كانت هي معي كنت أكثرَ وجوداً، أكثفَ وأقوى. أوّاه ! كل شيء فراغ: هذه الصخرة، هذه القطعة من معدن، انها لتبدو صلبة ملأى، وما ينبغي ان تكون صلبة ولا ملأى. انها مثلي قليلُ وجودٍ في كبيرِ فراغ. ولكن عينيّ لا تريان. بلى بلى: المادة، في أُسّ ما هي، أشياءُ من الوجود قلائل في بحر من اللاشيء لا يُحدّ. ولكنها تدور، إلى الأبد تدور ! ».

وخَتَم المتحدث يقول:

ــ هذا ما قصّه علي، ذات يوم في صيدون، أحدُ صيّادي السمك، بعد أن أتقنتُ لغة لبنان وشاطرتُه وعائلتَه ورفاقه عيشاً شظِفاً كالحياة.

« وقال لي إنها قصة يتناقلونها في أكواخهم أباً عن جد، وتُفرغها الأم خاصة في أذني ابنها متى أوشك ان يوفي على المراهقة ويتعرّض لأن تُفلت من بين يديه إلى غيره، او إلى الموت، حسناءُ حسانٍ يكون قد قال لها في سويعات النشوة: « أنتِ أنتِ الوجود. تكونين معي فأنا قليلٌ يطير وتذهبين فأنا الفراغ الكبير ».

سرّ العصفورة المتحرّرة

كانت فريدةً بين العصافير.

ولكن زقزقتها كانت أقرب إلى أنّة الجريح منها إلى هَتفَة الفَرَح.

وكان لا يجرؤ صيّادٌ على الالتفات إلى عنقها أو إلى ذَينِك الجناحين الطريفين.

هي عصفورةُ ناهار. جنديٍ صيدونيّ بطل خاض معركتي الترموبيل وسلامين وأُصيب باثنين وستين جرحاً ولم يمت.

ليس في المملكة من لا يُحبّ الجنديَّ ناهار. انه ذو

البسمة الاسطورية. دائماً في طليعة المتطوعين، يحمّس الجنود، ويقصد الموت قصداً. وهو، فوق ذلك، لا يقبل الرُتَب. « الحرب، يقول، الحرب ألذُّ الهوايات. انها فنُّ ملاعبة الموت ». ويضحك. ولكنه عندما قضت زوجته نَحْبَها من ألم الفرقة، وهو غائب في الحرب، عاد لا يسرِّي عنه الا هذه العصفورة التي ظهرت في بيتهم فجأة لا يعرف أحدٌ كيف.

كانت طليقةً في حجُرات ذلك البيت البحريّ القديم. ويفتح لها الجنديّ ناهار نافذة شرقيّة فتطير تعشّش فوق في غابة الأرز، أو تأخذ قسطها من الهواء والزقزقة والحطّ على ضفاف الأنهر، ثم تعود تأكُلُ الحبّ من على يده.

كثُر اللَّغط حول حُبّ الجنديّ ناهار للعصفورة الصفراء، وراح الصيادون في الغابات يتجنّبون قنصَ كل طير يشبهها. ورُكّب على ذلك ألفُ حكاية.

أما الجندي ناهار فكان يتخلص من المتسائلين بقوله:

ــ إنها جميلةٌ هذه الصفراء...

وبقيت العاصفةُ مُستكنة حتى كان اليوم المشؤوم.

ذلك صبيحةَ اقتحمت العصفورة على ناهار من الشارع نافذةَ حجرته ــ وكانت مقفلة ــ وراحت تضرِب

بمنقارها على الزجاج. ففتح لها وحطّت على مقعده بالذات. ثم أخذت تتفرّس في وجهه وتطلق زقزقةً حزينة لم يَسمع مثلها طوال عمره.

وشوهد بدوره يَسكب جُماع لحظه في عينيها الحاكيتين، ذاهباً إلى عهودٍ من شَرْخ صِباه غنيّاتٍ بالضوء، آونة كانت زوجُهُ الصبية على قيد الحياة، ملء تلك الحجرة مَرَحاً وملء العنفوان.

ــ ناهار، قالت الزوجة ذاتَ يوم، تراكَ تحبّني ؟ برهنْ. إنني موجِسةٌ شراً من مغامراتك، في فترة من عمر الزمن، يأبى فيها الفرس الاّ ان يتركوا المدى لخيط حلمهم. لا لَم أعد أُطيق ان تصاب بجرح. ان جاءني من يقول: « مات زوجك » فقأتُ عينيّ بأظافري، وبأسناني ظللتُ أنهش جسدي حتى أموت.

ــ كفى كفى، يا أُغنيتي في الفخار، يا لَمْع حربتي يوم النصر. السيف الذي ينال من جسمي لم يُضرب، ولا بُريَ السهم الذي يَمسُّني بأذى. إيل، اله الآلهة، هكذا أقرّ يوم وُلدت. أنا احد القلائل السعداء في الأرض فلأضع حظّي في خدمة بلادي.

ــ من قال ؟

ـــ أنا قلت. وهل كذبتُكِ يوماً ؟

فتردُّ الزوجة:

ـــ إنني اتبعك إلى الجحيم إن شئت، وأقول ان الشمس عَتَمَة ان قلت. ولكنني لن اصدِّقك في هذا. اخو الحرب لا تكتمل لذّتُه الا متى ذاق بفمه طَعْمَ السيف، او استقبل بقلبه شكّة الرمح.

ـــ أُسكتي أُسكتي كاد كلامُك يركّب لي جناحين.

ـــ لا، ولي عندك، قبل أن تطير، رجاءٌ احسبني مرضتُ به مرضاً.

فيسكت الجندي ناهار متهيباً، كأنه يوجس الطَلَب المخوف. ثم يسألها:

ـــ ماذا ؟

ـــ أقسِم بحبّنا لتفعلَنّ.

ـــ أُقسم.

ـــ فتطوّقه بذراعيها طويلاً، ثم تُجهش ببكوة فرِحة وتقول:

ـــ سدّدْ سهمَك إلى صدري فإني أود أن أموت بيد زوجي. أُحبُّك، يا ناهار، احبّك ملء حياتي وملء الموت.

ــ مجنونةٌ انتِ، يا حبيبة الصِبا. انتِ العمر وبهجةُ العمر فكيف أقتلكِ ؟

ــ ولكنكَ وعدت.

ــ لا، لن أبرَّ بالوعد الحرام.

ــ عهدي بكَ وفياً، يا ناهار. وستفي. ستقتلني بيدك لأنكَ بحبِّنا أقسمت. ان حبَّنا لعظيم.

راحت السنون تنطوي. كان على مصر ان تثور على الفرس فلا بدَّ للفرس من القيام بعملٍ يُبقي على هيبتهم: هجوم على القارة البيضاء، على اليونان بالذات.

وكان على الحلف الصيدونيّ الفارسيّ أن يَعمل أكثرَ منه في أيّ زمن.

صيدونُ سيدة البحر، وبإمرتها سيجرّد الفرس اسطولاً من ألف ومئتي سفينة وثلاث مئة مركب رديف.

ها هي الحواضرُ البحرية جميعاً في لبنان وقبرص ومصر تعمَلُ ليلَ نهارَ في اعداد السفن. وأمّهاتُ الفرس والميديين والاشّوريين والهنود يقدّمْنَ فِلَذَ أكبادهن لتدريبٍ حربي استغرق ثلاثة اعوام. لم يُعرف بالضبط عددُ الرجال في ذلك الجيش الخضمّ، ولكن اكزرسيس الأول، المزهوّ بمجده وجماله، قاد اكيداً جيشاً كبيراً.

عمِل الجنديّ ناهار مع الصيدونيين في بناء جسر السفن عِبر الألشبون، وشاهد العاصفة تفكّكه واكزرسيس يأمر بجَلْد البحر وبصَلْب المهندسين والعمال الذين بنَوه، فلا ينجو منهم أحدٌ الا هو.

وعمِل مع الذين ماتوا وهم يحتفرون قناةً عبر البرْزخ، تفادياً لدوران الجيش حول جبَل أتوس. مات الكثيرون من رفاقه ولم يمت.

وقاتل في الترموبيل الممّر الضيّق الذي لا تعبرُه مركبة، وقاس نفسه فيمن قاس. بالسبع مئة تسبي وبالثلاثمئة اسبرطي، يقودهم ليونيداس العظيم، أولئك الذين نفخت فيهم البطولة ان « ارموا النرد إلى الموت »، حتى اذا تحطمّت اسلحتُهم قاتلوا بالأظافر والأسنان. مات الكثيرون من رفاقه ممزّقين بالنواجز وبقي حيّاً.

ودخل فيمن دخلوا ظافرين إلى أثينة العظيمة وقد راحٍ تيمستوكل يُقنع أهلها بالتخلّي عنها إلى ما سمّاه هاتف دلف « سوس الخشب »، عاتياً بذلك أسطولَهم في سلامين. وشهدهم يغادرون المدينة صامتين من جرح،.ومن حين إلى آخر ملتفتين بلحاظٍ تجهش لأنهم لم يكونوا يؤمّلون عودة.

وناضل صدراً لصدر، وقفز من على صارية في معركة سلامين حيث تجمَّع الأسطول اليوناني الخفيف تُنازل سُفُنُه الأربعمئة أسطولَ الفرس الذي بناه الصيادنة من ألف سفينة ضخمة كقصور للأوقيانوس. أغرز أظافره في جِلْده لقبول الملك الفارسيّ بان يقاتل في خليج سلامين، وهو الذي يعلم ان القطع الفينيقية انما صُنعت لعرض البحر لا للأحواض. بلى شهدها في البدء تسحق كل سفينة صدمتها، ولكنها تروح فيما بعد تؤخذ بخناق المدى ويضيِّق بعضُها على بعض، حتى إذا وصل عدد من عمائر الأغارقة المرنة راحت تتلقى ضرباتٍ قاتلة. كان على الأسطول الصيدونيّ أن ينتزع المعركة لصالح الفرس، ولكن عناد اكزرسيس بقبوله القتال في هذا الوضع حوّل هدف الفينيقيين من نصر إلى انكفاء مجيد ينقذون به جيشَ الفرس ناقلين بقاياه إلى فالير.

وشهدَ الشمسَ تغيب موجعة الشُعاع على ثلاثمئة ألف أُبقوا هناك لحرب بريّة يؤمّل فيها النصر ولكنها ستروح تحمل صرير الأسنان من خيبة سلامين.

في كل تلك المعارك، مات الكثيرون ونجا هو.

ورأى أيضاً مِلِكَ الفرس، المنتصر إلى أمس، يتنقّل من

فشل إلى فشل فيُضمر أن يُنزل بالصيادنة ــ كأنهم السبب ــ الضربةَ تلو الضربة، حتى لتنمو فيهم بذرةُ الحقد على الحِلف الصيدونيّ الفارسيّ العريق.

وإذا يُقفلُ الجنديّ ناهار إلى صيدون يخبرونه ان زوجته ماتت.

هذا، مع عزّةٍ فينيقية المحطمة في سلامين، كان ينكأ جرحاً في صدر الجنديّ ناهار ويجد صورة له أوجع ترتسم في عيني العصفورة الصفراء المحدّقتين اليه.

ــ لا، قال للعصفورة، لا تتفرسي بي هكذا، يا سيدة الطير، يا أميرتي، يا حلوتي بين الحلوات.

ولكنه ما يكاد يلفظ « يا حلوتي بين الحلوات »، حتى يفطَن إلى أنها الكلمة التي كان يناجي بها زوجَته قتيلةَ الفراق.

أما العصفورة فقد بدا في لحاظها، بسبب هذا النداء، مثل حنين عاصِف. وراحت عيناها تتبدّلان لوناً حتى لتقربان من عينين يعرفهما جيداً الجنديّ ناهار.

وعندما حاولت أن تطير، قافلةً إلى عُشٍّ لها في غابة الأرز العالية، أهاب بها الجندي ناهار أن قِفي.

ولم تأبه لصوته المتهدّج.

وعبثاً ردّدَ النداء، وقد استلّ من جانبه قوسه وغمس يده في جعبتهِ منتقياً سهْماً لم يعرف كيف ركّبه ولا كيف وتّر له الوتر. حتى إذا أرنّ صوت النبلة في الخارج وشهد العصفورة تقع صدمته الحقيقةُ وصرخ:

ـــ هي هي التي أرادت أن تموت بسهمي. لقد جاءتني تطلب ذلك بعينين لم يوجعني في حياتي اجملُ منهما.

وتذكّر كلمةَ التي ردّها خائبة:

ـــ عهدي بلكَ وفِيّاً، يا ناهار. وستفي. ستقتلني بيدك لانكَ بحبنا أقسمت. إن حبّنا لعظيم.

يوم سقطت تيرون

كانت حصونُ فخر الدين الثاني، المزروعة من انطاكية إلى سيناء، قد سقطت الواحدُ تلو الآخر.

إلاّ تيرون.

وكان فخر الدين بنفسه يقاوم في القلعة الشاهقة.

وفجأةً دخل عليه القائد سمعان.

ـــ نفذت الذخيرة.

ـــ في العنبر السابع حجرٌ محفورٌ عليه خطّان متوازيان. انزعوه. إنّ وراءه مخبأ أسلحة.

وقفل القائد راجعاً، فأكمل فخر الدين الثاني الحديث وكأنه يناجي نفسه:

ـــ وفي القلعة مثلهُ ثمانيةَ عشَر.

« يمكنني ان اقاوم أشهراً في تيرون، القلعة الاثيرة، قلعتي أنا. بنيتُها متحسّباً لك شيء ».

وفيما كان يُسمع تبادلُ النار، اذا بانفجار يهتزُّ له المكان، فيقهقه فخرُ الدين:

ـــ انه من ذخيرة المخبأ.

ويَسكت صوت البارود.

ـــ ينبغي ان يكون الانفجار فعل فعله. انها زحلةُ أرضٍ أتت على العثمانيين.

ولكنّ فخر الدين يعرف انها هُدنة ليس إلا. فالعثمانيون لن يكِفُّوا. سيعيدون الكرة بقوات اجد واشد. ها هو يستجمع الذاكرة يسترجع الايام:

انه لطفل يعيش في كسروان عند بني الخازن. يَكْبُر فيخبرونه ان العثمانيين قتلوا جده، وابوه مات قهراً، والدروز ذُبحوا ذبحاً في عين صوفر. وبرغم ذلك قدر أن يقتطع لنفسه في الشوف امارة صغيرة. وشرع في تكبيرها. ولكنْ قبل أوان. انه ليُقلقُ الآستانة وهو لما يشتد ساعداً،

فتهددهُ الآستانة، فيضطر إلى ركوب البحر، إلى الانكفاء.

ها هو الآن في فلورنسا، عاصمة العالَم، عند صديقه غرندوق توسكانه، ينزل قصراً جميلاً.

انه لا ينسى زيارةً بعينها من زيارات صديقه له، وخصوصاً حديثاً بعينه دار بينهما في ذلك القصر اختتمه الغرندوق بقوله:

ــ أنت من طبقة الملوك الكبار يا فخر الدين الثاني.

كان الأمير اللبناني قد فاجأ ضيفه بالقول:

ــ هذه المرّة اتممتُ خططي: سأرجع إلى لبنان، سأستردّ مملكتي.

ــ ولكن...

ــ لا « ولكن »، يا عزيزي الغرندوق، كل ما اطلب سفينة تقلني الى شواطئ بلادي. الجبل على نار.

« لن تطأ قدمي أرضَ لبنان الا وتسري القشعريرة من قمة إلى سِيف بحر، ويكون تحت امرتي الوف الخيالة ».

ــ وسلطانُ اسطنبول، تراه سيسكت ؟

ــ مراد الرابع، سيكون اعجزَ من ان يعاديني صراحة. سيراوغ. سيُغدق عليَّ الالقاب. قد يعترف لي بسلطنة

تشمل كيليكية ومصر، شرط أن لا ازعجه. ولكنه سِرّاً سيعمل لقتلي. الا أن شعبه سيرغمه في النهاية على محاربتي.

ـــ مغامرةٌ إذن ذهابُك، يا فخر الدين، وان لم تضمن روحَ تركية في جانبك فعبثاً تمنّي النفس.

ـــ لا ليست تركية الدولة الولد لتتركني أقوى. ولكنّني على أيّ حال يجب أن أُغامر. قد اتغلّب على اسطنبول. قد احتلها. كل هذا متوقف على بطانة مراد الرابع.

ـــ ان كان هؤلاء اشداء طموحين وارسلوا اليك العدد العديد ؟...

ـــ ولهذا أيضاً اتخذت الحيطة. اكثرُ ما يقدر عليه العثمانيون ان يقتلوني. ولكنّني اكون قد عملت للبنان شيئين يَبقيان، فيُبقيان على لبنان إلى الابد. اكون قد جعلتُ هذا الجبل يرتعش رعشة البطولة. هو، منذ عشرات السنين، قابعٌ لا ينفجر بحدوده. سأطلقه من عقاله. سأبعث النارَ في عروق فتيانه. وإلى أن أنكسِر ويثوب العثمانيون من الوهلة، أكون قد جعلت للبنان المعاصر سجلاً بطولات. العنفوان ! انه وحده منجم البقاء.

ـــ والشيء الثاني الذي تعدّه، يا عزيزي الامير ؟

ــ الشيء الثاني تعلمتُهُ عندكم في توسكانه. امثولة فلورنسا، فلورنسا العظيمة، لن تبرَحَ ذهني، فلورنسا لا تموت. وقد لا تموت أوروبة لأنها اطلعت بضع مدن من مثل فلورنسا. عاصمتي، عاصمتي بيروت الحسناء، ستكون غداً أجمل من فلورنسا. عذراً، يا عزيزي الغرندوق. سأجعلهم يقولون: « في العالم ثلاثُ مدن: أثينة وفلورنسا وبيروت ». لن أُبقي عندك على مهندس معمار، لي أبقي على مصور، لن أبقي على رُخامة في مناجم كراره. كل ذلك سأجذبه إلى لبنان. وفيما أنا أُشغلُ العثمانيين بالمعارك سيكون افذاذُ العالم يخطِّطون مع اللبنانيين، ويبنون، ويصورون، وينقشون الصخر، لتنهض بيروت في الجوّ آية عمران وفنّ.

« أوّاه، يا عزيزي الغرندوق، لو تعرف بيروت. أنها أجمل موقع على المتوسط: يحرسها جبلٌ مكلل أبداً بالثلج، أما البحر فيمتدُّ عن جانبيها إلى جونيه وصيدا في أروع سيف تلألأ على شاطئ.

« هذه المدينة ان اقمتُ فيها القصورَ والملاعب ودُور العلم والتمثيل، وحفزتُ إلى بناء معابدها بالرخام، ونقلتُ اليها من الجبال حدائق وغاباتِ صنوبر، ان جعلتها المدينة

الأولى في العالم: مطارقُ البنائين تُسمع فيها من آخر الأرض، وعِلية القوم تقصدها تستمتع بالشعر وباشياء الجمال وبعمارات الرخام المخرم، عندئذٍ قل لي أفلا يغدو لبنان ضميرَ العالم؟ وهل يعُود ضمير العالم ليرضى بأن يلوّثه المدفع العثماني؟ انت، انت نفسك، يا عزيزي الغرندوق، لتَجيّشنّ الجيوش، إن داهم الخطر، وتطيرُ إلى حماية المدينة التي تنافس فلورنسا.

فيقول الغرندوق مازحاً:

ــ اواثقٌ، يا فخر الدين، بأنني في دخيلتي لن أغار فأرتاح لدمارٍ يأتي على مدينة تضارع مدينتي؟

ــ لا، يقول فخر الدين، لن تمر الصغارة ببال حفيد المدسيس: انت وآباؤك عملتُم للجمال اكثر من اليونان. يستحيل أن يخون المدسيس الجمال.

يقطّب الغرندوق حاجبيه، ويخنق ابتسامةَ اعجاب بفخر الدين، بينما تطفر من عينه دمعة حلوة. ثم يسأل صديقه:

ــ ولكن هل يكون بمقدورك ان تقوم بهذه النهضة من عمران ونحت وأدب؟ ان ذلك ليتطلب اكثر من استيراد. أوَ بلادكَ أهلٌ لان يُشتل في ترابها هذا الشتلُ السريعُ العطب؟

فيقول فخر الدين:

ـــ بلادي اطلعت صيدون وبعلبك وبيروت. إلى بيروت حجّت الدنيا تتثقف يوم كانت مدينتُنا ارقى عواصم الامبراطورية الرومانية غير منازعة. وفي بعلبك اليوم لا أكبر هياكل العالم وحسب وانما أجملها أيضاً. ولا أظن فناً يتشوّف إلى منافسة بعلبك. اما صيدون فلن تعرف مكانَتَها إلا إن جمعت أثينة إلى فلورنسا إلى باريس. بمدنيّتها لا بالسيف فتحتِ العالم، واليها قصدت الحسان يلبسنَ ويتصيّغن وقصدَ اهلُ اللهو والمعرفة يمرحون ويستمتعون بالثقافة في أول طلْعها. يقال ان أبا العقل الاغريقي كان صيدونيّاً. شائعة ؟ ولكنها تكفي. وهوميروس، على أي حال، لم يتكلم على أحد كما تكلم علينا. قال إننا « شعب الآلهة » و « حملةُ لغة الآلهة ». لقبان كهذين لا يطلقهما المرء الا على أهله.

كان فخر الدين قد وصل من خيط تذكاراته إلى هذا الحد عندما سمع جلبةً في الحصن.

ودخل القائدُ سمعان:

ـــ ماذا ! هل شاهد منظارُك عودةَ العثمانيين ؟

ـــ أهولَ من ذلك، يا مولاي: اهتدوا إلى النبع الذي يغذّي القلعة. وضعوا السُمّ في الماء.

ـــ لا عليك، لا عليك، جأر فخر الدين. مُرِ الجنود بالخروج. سنقاتل في العراء. سنشرب الماء من ينابيع لبنان البلّورية.

وفيما هُما على هذا وصل ساعٍ من بيروت. وفوراً ادخلوه على الأمير. فاذا به يحمل منشوراً كانت القيادة العثمانية توزّعه سِرّاً على جنودها.

تناوله فخر الدين وراح يقرأ. حتى اذا وصلت عيناه إلى سطر بالذات اخذت لحيتُه ترتجف: « إياكم، تقول القيادة التركية، ان تبقوا على عمران في مدينة، ولن تكون بيروت أجمل من اسطنبول ».

واستوضح الامير لهيفاً:

ـــ هل شرعوا في الهدم ؟

فقال الساعي:

ـــ لم يُبقوا على عمود ولا على حجر رخام.

عندئذ تحجّرت عينا فخر الدين. وحدّق القائد سمعان إليهما مستطلعاً ليرى مثَلَ بوسفورٍ يستقبل جثةً ورأساً مقطوعاً.

مِرْغَيانا

لربما، لأنهما سيلتقيان، كان الحبّ على الأرض.

اما ينذا فالعازفُ الأشهر في مملكة راحوب، واما مرغيانا فالجميلةُ بين الجميلات.

ـــ تحبّني، سألته يوماً ؟

ـــ وُسْعَ لفتةِ جبالنا وطموحِ الدفّة في طُراذفاتنا قاهرات الأوقيانوس !

فقالت:

ـــ ولا أكثر ؟

فتناول كنّارَته يحاول وقف الزمن في نغمة تقولُ حُبَّه،

فإذا موجةٌ رعناء تتخطّى صخرة الشاطئ التي كانا يقتعدانها في تلك العشيّة الواهجة، وتغمرهما من رأس إلى قدم، فيهربان غاطسَيْن في الماء، ضاحكين ضِحكةً مالحةً فَرِحة.

وهكذا لم تتكلم الكنّارة.

لأن هوجة من بحر أخّرت جوابا عن سؤال عروسه، أضمر ينَدا أن يُطلع من كنّارته نغماً ما سمعت مثله الأرضون.

أعوامٌ خمسة انقضت وينَدا منقطع عن أهله، يجوب ممالك آرام وكنعان، في جوع إلى ما هو أوسع من لفتةِ جبالٍ تحاورُ النجوم، ومن طموحٍ في دقة طرادفات أتعبت الأوقيانوس.

عايشَ الصبّاغين في صور مُطلعي الخيطَ المجلوب من الصين أرجوانيَّ اللون كأفقٍ من دم، والحياكين في صيدون ذوي الأنوال التي تطرز وتزركش. وساهر دُودَة القزّ منذ هي بويضة ستقتات بورقات توتهم إلى أن تنسكب شالا على عنق صيدونية أنيقة تجتذب إلى مدينتها سيّدات النخبة في العالم.

فاجأ مصانعَ الزجاج والبلّور في الصرفند تبتدع مرايا

العرائس وخرزَ العقود والمزهريات التي تزيّن جميعَ بلاطات المتوسط.

كدح وتصبّب عرقاً إلى جنب المعدنين مستوردي قصدير بريطانية، وفضة إيبارية، وكورباءِ البلطيق، وذهبِ اوفير التي عبر الأطلسي.

استمع إلى العائدين من نهايات الأرض يجوسونها في سرداب عموديّ يجفّفون ماءه بالدافع اللولبي ويستخرجون معادنها الخام يسحقونها في مطاحن ماء ويغربلون ويصَفّون حتى الخلوص.

انبهر مع القادمين من أقاصي المعمور يُحدّجون بأعينهم أقراط الذهب والكؤوس والشماعد والافاعي المعدّة لعبادات مصر، وصوالجَ الملوك المرصّعة بالياقوت والزمرد، والتماثيل المنحوتة من رُخام، والموائد والمقاعد والمراكب المصنوعة من أرز وصندل، وأمشاط العاج، وصحاف الخزف الرفيع الوشي.

تغنّى بالخمرة تُعتصر مدللة في اعالي الجبل، منذ هي حلمٌ في الجفنة المُعْرِشة إلى ان تمات بارجل الحسان، وانشد الزيت يسّاقط ثمراً عن الزيتون والنخيل ليعبّأ حياةً لُؤلُئية في الجرار.

سَكِرِ برائحةِ البحر والبعد تهبّ من أثواب الذين تعاملوا مع الدنيا واستعمروها لأنهم أعطوها جديداً.

تمرّس بالبنيان مع المعماريين يزرعون البسيطة قصوراً ومعابدَ، قُبباً وأعمدة مشيقة كأنها منبرٌ للشمس.

قلِقَ مع دهاقنة السياسة في مجالس الشيوخ يشهرون الأسنة أو يردونها بكلمة.

عن كلّ ذلك أخذ،

وبقي في جوع!

اصيب بدوار الفلكيين يجسّون نبضَ الاغوار الكونية، وتدرّج مع مقولات الفلاسفة يقسرون الزمنَ على البوح بسره.

تعلّم من أحد حفدة موخوس هجاء المادة، ومن الذرة إلى النجم كانت له كل يوم رحلة،

وبقي في جوع!

سمع من قال له: «انت نصفُ الطريق بين الجُرْم الفَلَكي وذرّة موخوس. وأعجب ما فيكَ عقلُكَ الذي يعرف ويعرف انه يعرف».

استنفد شرخَ الشباب في الغوص على غياهب الفكرة

منذ هي غبش يتحسّسُ ذاته إلى أن تغدو نظريةً علميّةً تقول العجب.

عرف فرح المعرفة، ابدع من عدم،

وبقي في جوع !

وذات ليلة، فيما هو على قِمّة سنير، حدّق إلى القبة المكوكبة، وكانْ قد سمع طفلاً يقول: « لو بلغتُ احدى قممنا لأعملتُ مقلاعي في النجوم... » فمرّت بباله فكرة كائنٍ اسمى مبدعٍ للوجود، وشعر أنه لن يبلغ من المعرفة ابعد، فهبَّ وكأنّه قد أُمِر، إلى كنّارته ينقر.

اللازورد الآن يشيع في النغمة، غنيّاً واهجاً كخدّ، وليالي الدهر المكوكبة تتجمّع في توقّف وتجعل الغصن في الجوار يقلق، وآونة يبلغ شأوُ الانّة حدَّ السكون ثم يضجُّ ليموت، فليبعث في مجد، فليأخُذَ في اللعب كأنما التقت صواعق وهدير بحر وقمم، أو عندما يلين البثّ كأنما ياسمينات الدنيا تلاقت تبوح بعطر مستحيل، في تلك الهنيهة، فيها بالذات، يَختتِم. فاذا الغصن الذي لم يعرف اللين يترنّح، وحنجرةُ البلبل التي خَفِيتْ تولد من جديد، وما لم يولد للحبّ يُحِبّ.

وشعر يبدا انه اصبح حقاً عازفاً عبقرياً، وانه بات في مقدوره أن يقول لحبيبته القول الذي تنتظر.

إنه الآن لَيَنهَبُ المسافات قاصداً اليها في راحوب، المملكة التي تبعد ليالِيَ طوالا. نعلاه تبريان من الركض وتتفتّتان، والحصى تدمي رجليه كأنما تأخذ من المجد فريضة. مقدامٌ، عنيدٌ يستهدف وطنه مباشرة، غيرَ سالكٍ طريقاً، فيُمزّق العفصُ والبلوط اثوابَه وجلده، وتـهِبّ العاصفة برعد وسكب ماء وشجر مقتلع تحاول عبثاً ثَنْيَهُ ودعوتَه إلى قليل راحة.

اخيراً، عندما يوفي على مدينتهم حافياً، نصفَ عار، مجرّح عَضَل، يلتفت إلى كنّارته فاذا هي ايضاً مهشمة الخشب، مفطومة الاوتار، الا واحداً. فيكاد يضرب بها الارض، باصقاً معها الحياة، هذه الرفيقة الغالية التي طَمِع بان يرفعها إلى مستوى الكون والحياة او إلى أقدام عرش الله، لتكون خليقةً بجواب تنتظره الحبيبة.

إلا أن جنازة تُطلّ فجأة من وراء تلّة، فيسأل: « منْ ؟ » فيقولون : « مرغيانا »، فيصرخ بالكنّارة أنْ « قومي أوَلم اغدُ مبدعاً ؟ او ما يحقّ لي ان احيي الميت ولو مرّة ؟ ».

وقيل انه عندما راحت خشبةٌ بين يديه ذاتُ وترٍ وحيد

تبثّ النَغَم الفَرح، مرقصةً روحَ الضوء في مخابئه، كان الناس يرون كنّارة تُزهر تحت اصابع مُبدع.

أما مرغيانا التي يقولون انها لم تسمع الجواب ــ وقد ظلّت تنتظره طوال الحياة ــ فلم تكمّل طريقها معهم وانما رمت بنفسها من فوق النعش لتستلقيها نغمةٌ لا تزال بها تطير.

السَلام اللبناني

عندما تُذكر اشياءُ الفكر، الفكر في مناخاته العالية، لا تخطر على البال سوى مدن قلائل. منها بيروت.

فاذا كانت أثينة اختُصّت بالحكمة، وفلورنسا بالجمال، وباريس بالذوق فان بيروت اختُصّت بالحق.

الحق ؟ وهل بعدَه بعد ؟

أول ما تتكلم الاساطير على قِدَم بيروت. انها وجبيل بِنْتا إيل بالذات، إيل إله الزمن.

من هنا الزعم أنها اقدمُ مدينة في التاريخ.

لكنّ هذا الفخر، صَحَّ أم لم يصِحّ، يظلُّ ثانوياً ان هو قيس بفضل المدينة على يقظة الحق في ضمير العالم.

قبل تأسيس مدرسة الشريعة بنحو الف وسبعمئة سنة، شُهرت بيروت بسنخوني أتن. مؤرخ قيل إنه عاش قبل موسى، إذن أقدم مؤرخ. تناول علوم الفلك ومنشأ المُدُن الفينيقية والاديان والتاريخ العالمي. وقبل هيرودوتس بنحو الف سنة كان له أن يُدعى « أبا التاريخ ».

وأهم منها انعقاد الاجماع على أن سنخوني أتن كان عادلاً.

العدل أوّلُ صفة تُطلق على ابن بيروت، على علاّمتها القديم العظيم ؟

تراها الدلالة على انه انما كان يلازم المدينة ارثُ عدالة يرقى إلى عصور وعصور قَبْلَ العهد بمدرسةٍ شريعة؟ وأن قيام مدرسة الشريعة فيها انما جاء نتيجةً طبيعية لما كان لها من سابقٍ شغفٍ بالحق ومن عريق خدمة له ؟

ذات يوم كانت طالبةٌ باريسية، يخصُّها العلامة بول كولينه باعجاب أشبه بحبّ، تسأله بلهفة:

ــ في أيّ مدينة ينصحُني المعلم بأن أدرس الحق ؟ في باريس أم في ليون ؟

فيقول كولينه:

ــ أنتِ مُوسرةٌ، يا حسنائي الشفّافة، لماذا لا تذهبين إلى بيروت ؟

كانت الفتاة صديقةً لطالب لبناني من بكفيا. فخُيِّل اليها، لأوّل وهلة، أن الأستاذ العلامة انما يُعرِّض بها. ولكن سياق الحديث ردَّها إلى مزيد من صواب فادركت ان العالِم كان حسَنَ النية. قالت:

ــ ماذا ! مدرسة بيروت الحديثة أفضَلُ من معهدَي باريس وليون ؟

فيقول كولينه:

ــ ان للارث العريق فعالية دونها الكمال. كلُّ استاذ في مدرسة بيروت، كل طالبٍ فيها، لا بد أن تواكبه أمجاد من بيروت يستحيل ان تضارعها أمجادٌ من أية مدينة في العالم.

وختم كولينه نصيحته قائلاً:

ــ وأوصيكِ، أن اصبحت كما اتوقعُه لكِ، بان تفكري في جَمْع الوثائق التي ستساعدنا يوماً على وضع تاريخٍ لمدرسة بيروت خليقٍ حقاً بالمعهد الذي لا يزال يشعُّ إلى اليوم.

وحزمتِ الفتاة امتعتها وقصدت إلى الحاضرة اللبنانية.

لكنها مرِضتْ بين مرسيلية وجنوى.

وذات صباح لم تستيقظ.

شَقَّ الامر على كولينه، وبقيَ طوال حياته يعدّ نصيحته مسؤولةً عن موت الباريسية الحسناء.

وهكذا كان يعدّها الطالب البكفاويّ.

تعدّدت زياراتُ كولينه لبيروت، منقّباً مرة، ومرةً مسهماً في ادارة اللجنة الفاحصة، ودوماً دوماً جامعاً الوثائق أو متصلاً بمؤرخي جامعة القديس يوسف التي اليها تنتسب مدرسة الشريعة الحديثة.

مَلفٌّ تاريخي ضخم كان لا بد من فتحه والاكباب عليه.

وكانَ وضعُ مقدّمةٍ على المدينة العظمى موضوعاً شغل كولينه ردحاً من الزمن.

انه هنا أمام عالَم من الامجاد جمٍّ الحقول. وافراغُه في الورق كان يستدعي تأليفَ مجلداتٍ ضخمة.

منذ عهد التزاوج بين الآلهة والبشر يُذكر عن الشاطئ الفينيقي أنه أطلع شهْماً أسطورياً مثلَ برسِه يُنقذ من التنّين اندروماد الجميلة. ستتكرر الحادثة على اسم مار جرجس،

فاذا الفارس القديس رجلُ الشهامة في المسيحية وساحتُه هذه المرة بيروت بالذات.

ويتحدثون عن ازدهارٍ للمدينة يجعلُها حاضرة العِلم طوال العهد القديم، وعن تقليد يزعم ان المسيح زارها، ثم عن شغفٍ لأباطرة الرومان بها سواءً قبل ارتقائهم العرش أو بعده. انطونيوس، اغسطس، فسبازيان، طيطس، كونسطانس جميعاً قصدوا بيروت وسكنوا بيروت. وسكنتها جوليا السعيدة بنتُ اغسطس، تلك التي، لوفرة تعلقه بها، راح الامبراطور الوالد يزين المدينة بملاعب ومعاهد علم ومراسح وقصور وهياكل تضارع جميع ما في رومة، ولا يفوقها نقشاً وفخامة سوى هياكل بعلبك.

لسوف يتذكر فخرُ الدين الثاني كل ذلك. فيحاول، عقب عودته من توسكانا، أن يسترجع لبيروت مجدها المفقود، بل ان يتخطاه مؤملاً ان تصبح عاصمةُ لبنان عاصمةَ العالم.

سوى ان ذلك، على روعته، يبقى ثانوياً ان هو قيس ببيروت مدينة الحق.

منذ القرون الاولى للميلاد، تُبنى مدرسة بيروت الحقوقية. وتروح تطّرد شهرةً حتى لتبلغ الأوج في منتصف

القرن الخامس، فتمد العالم الروماني ــ وهو يومئذ العالمُ كله ــ بمفكّريه وقدّيسيه ومشترعيه وساسته معاً. وذات يوم في عهد الامبراطور اللبناني الكسندروس ساويروس يكون وزراءُ روما، جميعاً تقريباً، بما فيهم رئيسهم، من مدرسة بيروت.

إلى مدرسة بيروت قَصَد الطلاب من بلاد العرب وأرمينية وآسية الصغرى وبيتينية وشمال الاناضول والكبادوكية وكارية وكيليكية ومصر وما بين النهرين وأوروبة واليونان والقوقاز وايليرية وليسية والاسروان وفلسطين وبنفالية وايزيدية ومكدونية وسورية.

وتمضي المدرسة في ازدهار وقطف أمجاد حتى يُعترفَ لها بان لقب « معلمين عالميين » لن يُطلق الا على أساتذتها.

ولعل أجمَلَ ما يؤثر عنها أنها ومدرسة القسطنطنية تفردتا بوضع ما سوف يُسمى الشرع الروماني، وأن الامبراطور يوستنيانوس، الذي لا يزال اسمه مقروناً بالشرع إلى اليوم، فوّض إلى اثنين من أساتذتها، هما أناطول ودوروته، القاءَ آخر نظرةٍ على المدونة اليوستنيانيّة.

وفي جغرافية الاكسبوزيسيو نَصٌّ خليقٌ بأن يترجم

بالحرف: « ان تعليم مدرسة بيروت أصبح اساس كل الدروس الحقوقية في العالم ».

واتجهت أنظار المعمور إلى بيروت كمركز عَملٍ حقوقي من شأنه وحدَه ان يُوحِّد بين شعوب الأرض. فعقِب كلّ حرب، عندما كان يتجدد الأمل بايجاد صيغة للسلام العالمي، كانوا يقولون: لا يُستبعد ذلك ما بقيت بيروتُ في الوجود. وفكّر مفكرون في العمل على أن تتسلّم بيروتُ مصائر العالم.

جمَعَ كولينه عن المدرسة الشهيرة معلوماتٍ لا تثمّن. سوى أن الحَجم الذي عيّنه لكتابه ضاق بكلّ ذلك، فراح يحذف دون أن يفارقه الشعور بان شيئاً من قلبه ينسلخ.

على أنه ثأر لنفسه بأن وضع على جِلدة الطبعة الاولى من كتابه « تاريخ مدرسة بيروت الحقوقية » بضعةَ ابيات من ملحمة الشاعر الاغريقي نُنُوز من شأنها ان تعوِّض.

واليك بترجمة الابيات:

« لن تنمحي النزاعاتُ الداميةُ المدّمِرة،
تلك التي تفتك بالشعوب،
إلا متى غدتْ بيروت،
قيِّمة على راحة الحياة وعلى طُمأنينتها.

مسيطرةً على البحر والبر،
موطِّدةً سُبُل القوانين،
مستأثرةً بالحكم المطلق على جميع مدن العالم ».

عندما كانوا يشيّعون جثمان بول كولينه كان في المودعين شابٌّ أوفى على الرجولة، هو البكفاويُّ الذي لم يكن يغتفر للعلامة الحقوقي تشويقَه لفتاة عمره ان تذهب إلى لبنان... إلى آخر تلك اللوحة المحزنة...

وفيما كانوا ينصرفون راح هذا يسلخ من تحت ابطه كتاب كولينه « مدرسة بيروت الحقوقية » ويمزّقه صفحةً صفحةً ثم ينثره على القبر كباقةٍ من زهر.

كانت الريح تَنْسِم قليلاً، وإلى البعيد تحملُ نُتَفاً من أوراق الكتاب..

واذا اسم بيروت، مقروناً بالسلام العالمي، يتطاير في الهواء مع أشعار نَنّوز وذكرى الحبيبة الغالية.

عشيةُ الدم

ــ اخبار صِقليّة، هي أخبار صقلية !...

هذا ما جأر به ماغون، شافِطُ البحر، بعصبية وغضب، فيما كانت قدماه تزرعان أرض القاعة، جيئةً وذهاباً.

ــ وبعد ما تراكَ ترتئي ؟ سألته زوجته.

ــ أرتئي ؟ قرطاجة على مفترقِ طُرُق. نَذَر أجدادنا صورَ الجديدة هذه لعشتروت لا لملقرت. اقسمنا ألا نسفك دماً. وصبرنا على المكاره وتعريضِ الشرف وفاءً لما ارادت إليسّا المؤسِّسة.

« ضحت بنفسها لكي تمنعنا عن امتشاق السيف.

« وعلّمت: « السلم أشدّ فتكاً بالعدوّ ».

« الشافطون الذين وُلّوا الحكم قبلي حفظوا الوصيّة.

« في عهودهم كان ذلك محتملاً.

« اما اليوم !... ».

واحسّت زوجة الشافط ان رجلَ دولة آخر اخذ يولد في ثوب زوجها.

كأنها عادت لا تجد ماغونا في ماغون...

فتوسّلت إليه بحنان:

ــ لا، لا تفكّر هكذا.

كانت خائفة. شبحٌ راعب كان يرتسم لعينيها الجميلتين.

فطمأنها بذراعيه اللتين طوقتاها أنيقتين حارّتين.

الا أن قامته المديدة وجبروت جسده كانا يتناقضان مع طيبة قلبه.

ــ لا تبكي، يا عزيزتي. زوالُ الدنيا ولا دمعةٌ من هاتين العينين.

فسألت:

ــ وزوال قرطاجة ؟

وانتظرت جواباً.

لكن ماغون أفلتَ من بين ذراعيها.

وكانت بنت الشافط قد دخلت، وحضرت أواخر المشهد فساورتها هواجس خلاف بين أُمّها وأبيها، وظنت ان وزير البحر، على تعلقه بزوجته، سيتركها إلى الأبد، فتدخّلت:

ـــ أبي، أوَ تذهب إلى بلاد نائية ؟

فلم يسمعْها.

كان قد أصبح في الرّواق خارجاً، وسُمِعتْ جزمتُه تخِبُّ على درج القصر.

وتولّت الأمُّ طمأنة الفتاة:

ـــ لم يتركنا إلاّ إلى قرطاجة !

فاستوضحت الفتاة:

ـــ يُحب قرطاجة أكثر مما يحبّكِ، يا أُمّاه ؟ ان ابي لعظيم. إنه لممن يُعبَدون.

ماغون الآن في حدائق شافطيّة البحر، يلطّف من حدّة نظرته بتسريحها على الشجر النضر.

الليمون أزهر وعبق الجو بالشذا. وعلى غصن خفيّ صوت بلبل يكرّ...

ــ لا، لا، كاد يقول، هذا الجمال لن نخدّشه بصوت الأسِنّة.

« ان مجلس العموم لا يريد الحرب، ومجلس الأعيان متأرجح بين بين... وكلمةٌ مني تميّل كِفّة الحرب.

« يضايقوننا في صقليّة.

« نحن لم ندخل تلك البلاد بالسيف.

« المعوَل الصوريّ لا يتعرّض لأرض شعبٍ إلا ليغدق عليها الخيرَ.

« كان الصقليون قبل عهدهم بنا حُفاةً عراة. عرفت نسوتهم بعدنا أناقة الصيدونيات والقرطاجيات، وفلاحهم عرف الرخاء. علمناهم التجارة، العلائقَ بين البشر. ادخلنا حتى النقدَ إلى بلادهم، ادخلنا العدالة.

« انا، انا شافطُ البحر في قرطاجة، ليست لي كلمة بين متنازعَين صقليين. الكلمة للمحاكم التي تعمل بوحي الآلهة والضمير.

« ولكن اذا استمـرّت صقليـة في اضطـراب، فستضطرنا...

« ان لسلطاني مسؤوليته أمام سلامة قرطاجة، سأستل السيف، يا صقلية ».

كانت الشمس قد تسلطنت وبدتْ وطأة الهجير شديدة، عندما خرج شافطُ البحر من حدائقه متوجّهاً إلى ندوة الأعيان.

وفي الليل، في الهزيع الاخير من الليل، بعد عودته من الندوة، توقّف امام سرير زوجته يريد ان يضمّها. ولكنه رآها نائمة في اغماضة الربّات.

أخذ يمشي بتؤدة، خشية أن يُسمع لجزمته وقعٌ يخدّش غفوة زوجته، ذاك الذي سيُرجف اليونان غداً في صقلية.

مُعلّمو مُعلّمي العالم

صبيحة ١٨ آب من عام ١٨٢٦ علت صيحة في ساحة القصر من بيت الدين. وما هي حتى انفتح شبّاك الكُشك، ففهم الحرس أن الأمير سمع. فخفّ اليه أحدهم.

ــ امرأة، يا مولاي، تلتمس مقابلتك. عرضوا عليها مالاً، رفضتْ. وهي تأبى إلا أن ترى مولاي.

ــ أدخِلْها.

المرأة الآن في حضرة بشير الثاني، في الكُشْك، الذي كان يدلف اليه قبيل الظهر يدخّن الغليون ويستقبل بعض رجال البطانة.

أنيقة، شاحبة الوجه على جمال.

ــ أنا من عين غْنوب يا مولاي. مات زوجي تاركاً لي ولداً طفلاً وثروة. ربّيت الولد من فضل ربي وخير مولاي. وكنا على أسعد حال، لولا أن جاءتنا هذه السنة بسلفةٍ لي أرملة، كانت مهاجرة في بلاد الفرس. سلفتي هذه أبرزت وثائقَ تُثبت أن زوجي مدينٌ لزوجها بكل أملاكه. فسلمتُها الأملاك.

فبُهت الأمير :

ــ فعلتِ هذا ؟!

ــ فعلت لأنني مقتنعة بأن الأملاك هي حقاً لها.

ــ والآن ما تريدين؟

ــ إبني أتمَّ تحصيله في فلورنسا وهو يجيد ستَّ لغات. ما أنا لأرضى بأخْذ جُعالة من أحد. كلُّ ما اطلب ان يعمل مولاي على اقناع ابني الشاب بان يستخدم. مصرف طليانيّ في بيروت يعرض عليه عملاً حسناً لكنه هو يرفض.

ــ جيئيني بابنك.

ــ انه يأبى، يا مولاي.

ــ يأبى ؟ لا عليك... نحن نتولى جلبه.

في اليوم التالي كانت المرأة وابنُها في بيت الدين.

الشاب في السابعة عشرة، وسيمُ المحيا، نبيل الإشارة، مُتزنها.

ــ لماذا، يا بني لا تقبل العمل في المصرف الطلياني ؟

ــ عفوَ مولاي، لا أُحِبُّ الاستخدام.

ــ ولكنكم أصبحتم في عوَز.

ــ هذا صحيح. بيد أنني أُؤمل ان نخرج من المحنة لا في أمد بعيد، بإذن الله. سأؤسّس في منطقتنا مدرسة، وانني بصدد تدَبُّر المال.

فقاطعته الأم:

ــ قد يتأخر المال، يا مولاي، وقد تنجح المدرسة وقد لا تنجح، والصيرفيّ الطلياني في بيروت ليس عَبدنا. لن ينتظر. لربما اهتدى إلى مستخدم وضاعت الفرصة !

فضرع الفتى إلى الأمير:

ــ وددتُ ان لا يتأثر مولاي بأقوال والدتي. عاطفتُها تتكلم. وتتكلم معها الحاجة التي أخذت تعضُّنا من جراء شهامتها. هي التي سلّمت زوجة عمي التركَة جميعاً. خير ما عملت: ان قبلتُ الاستخدام، يا مولاي، فقد أنزلق إلى التجارة. التجارة لا أحبّها. أريد ان انخرط في سلك

التعليم. شيءٌ لا يأبهون له في الشرق. الدولة التركية تحتقر معلّم الصِبية. تضعه في عداد الذين لا تُقبَل لهم شهادة. سأمحو لطخة العار عن أشرف المهن. للبنان، يا مولاي، ماضٍ في التعليم لا تجوز خيانتُه. لو أُعطيت عرشاً لما تخليت عن أملي بأن أُصبح معلم مدرسة في لبنان. معذرة، يا مولاي، إن أنا امتدحتُ نفسي. نادراً ما يجوز للمرء ان يمدح نفسه. لكن النادر ليس المستحيل. كنت ألمع تلميذ في فلورنسا. وهناك عُرض عليّ أن أُدرِّس. لكنني آثرت ان اعمل في وطني. قريباً سأؤسّس المدرسة. هو حلمي منذ أنا طفل.

كان يتكلم وحاجبا الأمير الكثيفان يرتقصان من فرح. وما هي حتى قام عن طَرّاحته ودعا الشاب اليها:

ــ اقعد.

ثم التفت إلى الحاجب:

ــ المعلم نقولا، هل هو في القصر ؟ قل له أن يتلطّف بالحضور. كذلك قل للمعلّم بطرس كرامي. وليبعثوا مرسالاً إلى الشيخ ناصيف اليازجي.

انقضى يومان والشاب وأُمّه ضيفان على الأمير. حتى اذا قَدِمِ المعلم ناصيف ــ وكان يرافقه ولدان صغيران، الواحد

في نحو الثانية عشرة والآخر في حدود السابعة ــ واكتمل عقد المثقفين الذين يؤلفون البطانة، أُدخلوا جميعاً على بشير الثاني. وكان الضيفان قد سبقاهم إلى المثول بين يديه. فقال للشاب:

ــ حدّث أصدقاءنا حديث أوّل امس.

فقال:

ــ معذرةً، ايها السادة، كنت التمس مساعدة مولاي في اقناع أُمّي بان لا ترغمني على قبول العمل في مصرف. أنا شابّ قُيّض لي أن أحصّل في توسكانا، وأودّ أن أؤسّس مدرسة في الجبل. هذه كل قصتي.

فقال الأمير:

ــ أول أمس تكلمت على التعليم وكيف أنه أشرف مهنة. وقلت أنك تؤثره على تولّيك عرشاً ان عرض عليك. ذكرتَ ان للتعليم في لبنان اياماً مجيدة او شيئاً من ذلك. هل لك أن تعيد الحديث على هؤلاء السادة ؟ اقترب مني. إقتعِدْ هذه الطَرّاحة. هنا هنا. هؤلاء الأئمة يفقهون قولك. انهم رجال معرفة. لم تقل لهم انهم، في فلورنسا، عرضوا عليك أن تُعلّم، فرفضت مؤثراً ان تعمل في لبنان. لماذا، لماذا لا تتحدث اليوم شأنَكَ أوّل أمس ؟

فشكَّ الشاب بعض الوقت ثم رفع عينيه.

ــ ما قلتُه، ايها السادة، أمرٌ عادي، لولا أن مولاي تنازل وعطف عليه. على أيّ حال، سأحاول أن اتذكّر ما ارضى أميرَ لبنان.

ويروح الشاب يقص قصّة التعليم في لبنان. ها هي أوّلُ مدرسة في العالم تتأسس ــ على ما يرجّحون ــ في جبيل، وإن أُجريت حفرياتٌ على شواطئ فينيقية فلا يُستبعد ان يُعثر على كتب محفورة على الآجرّ، كانت تدرَّس في مستهل التاريخ. ثم يُطلُّ عظامِ العالم: هذا مارك أُوريل الامبراطور الذي وضع في الخُلُقيّة ما يُعتبر، بعد أسفار الدين، اجملَ كتاب خطّته يدُ البشر. انه تلميذ معلّم من عندنا هو مكسيم الصوري. هذا كاتون الأوتيكي. عَقِب اعلان حكم الطغيان ينتحر مردداً: « لا يعيش كاتون بعد أن ماتت الحرية ». انه، هو أيضاً، تلميذ معلّم من عندنا اسمه انطيباتر الصوري. هذا يوحنا فم الذهب، أخطبُ خطيب اطلعته المسيحية، انه تلميذٌ لليبانيوس، المعلّم الذي أسس مدرسة في انطاكية، وكان يسند دخله دخل كرْم بقي له في شمالي لبنان، ولإعجاب المفكرين به قصده الناس من أقاصي الأرض يتتلمذون على فصاحته قبل

ان يصبحوا قديسين أو أباطرة. هذا شَيشرون أخطبُ خطباء الدنيا. انه، هو بدوره، تلميذ معلّم من عندنا يُدعى زينون الصيداوي.

وتطول قصة المدرسة في لبنان. تطول مجيدةً، بينما حاجبا الامير يستمران يرتقصان من فرح. حتى اذا يقول الشاب: بلى، ايها السادة، يمكننا، كما ترون، ان نضع كتاباً بعنوان « كُنّا معلمي معلمي العالم »، تنحدر دمعتان كبيرتان على خديّ الأمير.

وقيل أنها المرة الأولى التي بكى فيها بشير الثاني.

وفي اليوم التالي كان صغيران، جاءا بمعيّة الشيخ ناصيف، يزوران الشاب في غرفته الفخمة.

هذان كانا قد بقيا في الباب عندما راح الشاب يتكلّم في حضرة أمير لبنان. ولكنهما سمعا الحديث جميعاً. لم يُعطيَا ان يمثلا بين يدي الأمير، الذي انشغل عنهما، مع ان اليازجيّ كان قد وعد ذويهما بأن يقدّمهما له، لوفرة ما يتوسّمه فيهما من ذكاء.

ــ انا اسمي يوسف، قال كبيرهما، يوسف الاسير، ورفيقي اسمه بطرس، بطرس البستاني. جئناك لِنتعرّف إليك ونعلنك اننا متى كبرنا سنفتح، نحن أيضاً، مدرسةً في

الجبل، لنكون خليقَيْنِ بالسلك اللبناني الذي أطلع مُعلّمي معلّمي العالم.

وكانت أمُّ الشاب تسمع.

فالتفت نجلها إليها.

فاذا هي تبتسم. ويبتسم لها الصغيران.

قبلها

كان قد رآها، في احدى رحلاته إلى صيدون، تلمّ زيتوناً في ظاهر المدينة. وتَحَمَّلَ نظرتَها القاسية وهي تُخرس على شفته كلمةَ « احبكِ ».

منذ ذلك اليوم، عاد لا يذكر من الدنيا سوى عينين سوداوين.

وراح يقنع والده، القائد المتقاعد، بان تَنتقل أُسرتهم من عسقلان إلى صيدون، مدينة النور.

ــ تريدنا إلى السكنى في مملكة عدوّة ؟

ــ لا تتكلم هكذا، يا أبي. ومنذ متى نحن اعداء

صيدون ؟ كان الشعبان واحداً، يوم غزونا الفراعنة وحَكمنا بلادهم. كلا شعبينا فرعٌ من حلف الهكسوس. عرفنا المجد معاً. انه لإثمٌ ان نحرِّض الفلسطنيين على الصيادنة.

كان القائدُ يُصغي إلى ابنه واصابعُه تضرب بعصبيّة على منضدة أمامه.

ــ هكذا تشاء السياسة، يا بنيّ. اقتصادنا في ورطة. لا نجاة لفلسطين إلا بموت صيدون. نصف ذهبِ العالم مكدَّسٌ في صيدون.

قال، فاذا لقوله وقْعُ الصاعقة على الشاب الذي نظر إلى والده نظرة مرّة، ثم ترك الحجرة.

ــ بِلتسا.

ــ مَن ؟ هذا انت ؟ منذ متى تناديني باسمي ؟ لا نصيب لك عندنا، ايها الفلسطيني: قد يرضَى والدي، اما أنا فلا. عُد إلى بلادكم، ايها السيد، ما انا سوى فلاّحةٍ بنتِ فلاح. انتَ ذو ثراء وجاه. وبنات فلسطين حسان.

ــ بِلتسا ! ما جئت لهذا. لقد خَنَقْتُ خاطرةَ الزواج. أما حبّي فله عليّ شأن آخر.

« اسمعي: هل تُحبّين صيدون ؟ ».

ـ بلادي ! إنها كل شيء بعدالة الآلهة.

ـ إذن أدّي قسطَكِ من حمايتها.

ـ لم أفهم. وما معنى « قسطي » ؟

ـ صيدون في خطر. أسهمي في الدفاع عنها.

ـ مضحكٌ أنت، أيها الفلسطيني. صيدون سيّدةُ البحر، من يجرؤ ؟...

ـ هناك شعبٌ شقيق يستعدّ لمهاجمتها.

فقهقهت:

ـ يهاجمون صيدون ؟ إمضِ امضِ... لا نصيب لك عندنا.

فانتفض الشاب، وراح يقبض على كتفيها بيدين موجِعتين ويهزّها كأنه يحرك منها الصميم:

ـ قلتُ انني أبعد ما أكون عن خاطرة الزواج. المسألة اكبر منكِ ومني. يجب أن تذهبي إلى مجلس الشيوخ في المملكة. وسألقنكِ خطاباً تلفظينه فيهم.

ـ انا، الفلاحة، ألفظ خطاباً ؟!

ـ نعم انتِ.

فازدادت ضَحِكاً:

ــ لم أُطعِمْ بَقَراتِنا بعد.

ــ إسمعي يا بِلِتْسًّا: كان، في قديم الزمان، شعبان متآخيان. فاتفقا وغيرهما من الشعوب المتحالفة على غزو بلاد الفراعنة. كان الفراعنة لا يقتنون الخيل. فتغلّبوا عليهم بها وحكموهم نحواً من مئتي سنة. وأخيراً دار دولاب الزمن وثارتْ مصر وتمكّنتْ من طرد الشعبين ورفاقهما. هل تفهمين ؟

ــ هذا افهمه.

ــ وافترقا في الهزيمة: شعبٌ ذهب إلى بحر إيجه، الذي كان قد استوطنه أقرباءُ له، والآخر عاد إلى بلاده، إلى بلادي.

ــ ولماذا لم يرجع الشعب الأوّل إلى وطنه ؟

ــ رجع فيما بعد. فلحق به ملك مصر يُقتِّل منه ويذبّح. ثم رضي عنه وأسكنه غزة واشدود وعسقلان.

ــ هذه مدنكم.

ــ أجل مدُنُنا. استوطنّا فلسطين مشتقين اسمها من اسمنا. ونمونا في ارجائها. وها نحن الآن نطمع بمهاجمة صيدون.

ــ أممكن هذا ؟ أأخوانِ ويقتتلان ؟

ــ سنهاجم صيدونَ الليلة. حملتنا دُبّرت بتكتّم مطلق. « الشعب، عندنا، لا يعرف إلى أين سيقوده قواده. ستؤخذ صيدون غفلةً من حيث لا تتوقع.

ــ الليلة ؟! حذارِ ان تكون كاذباً. أقسِمْ.

ــ بعينيك السوداوين أُقسم.

* * *

ندوة الشيوخ في صور تُعنى بشؤون الصيادنة النازحين بعد دمار مدينتهم وسلبها كنوزها ومحتوياتها الثمينة.

توحدّت مجالس المملكتين وخطب الأعضاء متوعّدين. وتكلم بعضهم وهم يجهشون بالبكاء.

ولكن الجميع وضعوا المستقبل تحت شعار كلمتين: « أمل وعمل ».

في تلك الجلسة الخطرة تقرّر تكبير صعور: وَصْلُ ما بين الجزر الثلاث، بناءُ باليصور على الساحل، خصُّ ملقارت وعشتروت بأفخم هيكلين في العالم.

وعندما خطرت بِلْتِسًا فجأة بين الحضور. هَتف أحدُ النواب الصيادنة: « هذه هي. الفلاحة التي أنذرتنا. راحت

تهدّدنا بالقتل ان لم تُعلن النفير العام. أهلها جميعاً ماتوا في المجزرة ».

فتحمّس لها أعضاء الندوة. واقترح بعضهم ان يخصّها المجلسُ بمعاش تُعطاه مدى الحياة، وتقدّم نائبٌ موسر بطلب يدها.

فرفضت الأمرين.

الحياة تسير سيرتها القديمة في كنعان والناس يتعوّدون النكبة.

أما بِلِتْسا، فقد راحت تعيش من حليب بقرة تُربضها في ظاهر صور. تماماً كما كان أهلها يُربضون ماشيتهم في ظاهر صيدون.

على أنها كانت، كلّ يوم، متى فرغت من عملها، تجمع باقةً من الورد وتحملها إلى قبر تقول لسائلها فيه انه قبرُ زوجها.

وفيما يروح بعض الصيادنة، الذين لم ينسوا، يلعنون إسم فلسطين، تقول هي: « أما قلبُ فلسطين الحقيقي فقد رأيتُه يخفق شريفاً بين يديّ ».

مرزديا والاسكندر

ذات يوم أوقف العسَسُ في صور جاسوساً إغريقيّاً.

وعذبوه كَيّاً بالنار.

فباح بما أقلق البال.

ــ الاسكندر، قال، سيتوّج نفسه عاهلاً على الشرق والغرب في مدينة صور.

الاسكندر ؟ ابن فيلبّوس المقدوني ؟

لم يكن يغيبُ عن بال أحد، في الممالك الكنْعانية، أخبار الملك الشاب.

كانت ظروفٌ عَجَبٌ قد جاءت بأبيه إلى عرش اليونان

جميعاً، وصدفةٌ أعجب جعلت الابن يرث المِلْكَ دون اخيه.

كان قد سيطر على أثينة رجلٌ يقدّس العقل واليَدَ المُبدعة. بركليس بن ملتياد بطلِ مارتون. فاستخدم جميع أموال الحلف الاغريقي لجعل أثينة عاصمة الفكر إلى الأبد.

عندما جاء بالمهندس إكتينوس وبالنحات فدياس للتصميم قال لهما: « أريدكما تطيران. أموال أثينة واسبرطة وثيبة جميعاً في امرتكما، وكلٌّ من تتوسمون فيه العبقرية ».

وعندما كانت أثينة تخرج من الازميل محفورة على اللازورد، بيضاء، مرمراً بمرمر، أو تنجبُ شاباً يَرهف عقلهُ، حتى ليرسل الخواطر عرائِس ساحرات، كان بركليس يقول: « لا لن يحنق الأغارقة عليّ. الأغارقة يحبّون الجمال. سيغتفرون لي أني بدّدت مالاً جُمع لصيانة الطمأنينة، أو لفتح الممالك، وأقمت بدلاً من ذلك أثينة العظمى، تلك التي ستَفتح لهم أبواب الكون والزمان ».

وكان الأغارقة، عند ظَنّ بركليس.

لكن أصابعَ الفرس راحت تلعب.

وبعد موتِه أمكنها أن تنجح.

مَدّ الفُرسُ أخصامَ بركليس بالمال، ومدّوا حزبه بالمال.

حتى عمَّ التناحرُ الداخلي، فراحت السيادةُ تتدحرج بين أثينة واسبرطة وثيبة، وأخيراً بينهنّ جميعاً وبين مقدونية بشخص الملِكِ فيلبّوس.

كان فيلبوس، في زمن ما، أسير ثيبة. ولكنه عاد وأفلت. وراح يدرّب جيشاً سقَطَت أمامه الحاضرةُ تلو الحاضرة، حتّى دانت له بقعةٌ من الأرض تمتدّ من بحر إيجه إلى الدانوب.

وماتت أُولَمْبياس، أمّ الاسكندر، والاسكندر طفلٌ بعد، فنشأ محرومَ حنان الأمّ. لذعةٌ أبقت له شراسةً لم يخفّف منها تحصيلُه العلم على يد أرسطو.

إلاّ أنه أخذ، عن ذلك العقل الفريد، حُبَّ الحقيقة، والثقةَ بها، ومعرفةَ نَظمِ التفاصيل بالكلّ.

وذات يوم كاد ينطفئُ الاسكندر قبلَ ان يُصبح الاسكندر.

كان ذلك لخلافٍ في القصر يتأكّل الفتى وكليوبترة زوجةَ أبيه.

ففي أثناء مأدُبة شَرِهة، بلغ الغضبُ بفيلبّوس المختمر أن استَلّ سيفه للاجهاز على ابنه. ولكنه سَقَط على الارض لشدّة حُميّاه. وسقط سيفه.

وهكذا نجا الشاب.

وترك المملكة.

وكانوا قد فرغوا من اقناع فيلبوس بالتنازل لابن كليوبترة.

لكن الملك مات قبل أن يُحقّق إرادَته.

عاد الإسكندر إلى البَلاط، فتى نزِقاً يستخفُّ به الناس. ولكن ما هي ضربةٌ منه حتى عرفوا فيه تلميذ ارسطو.

الفرس أعظَمُ دُول الأرض إطلاقاً.

الفرس أعداء الأغارقة.

ذات يوم داسوا أثينة ودنّسوا آلهتها.

الفرس، هؤلاء، حان لهم أن يعرفوا الجواب.

درّب النابغةُ الشاب، طوال سنتين، جيشاً من أربعةٍ وثلاثين الف مقاتل. وتوجّس الناس خطَره في كل القارّات.

ـــ « أقسم ابنُ فيلبوس ليتوَّجنّ في صور ملِكاً على آسية وأوروبة ؟

« أقول لكم: الاسكندر لن يترك وراءه ممالك غير مفتوحة. والا أبقى اليونان مكشوفة.

« هذا لا يعني انه فعل. سوى ان المقدونيَّ الشاب عنيد »

هذا ما اختتم به خطابه مِرْدِيا الشيخ، داهيةٌ صوري عَجَم السياسة وعجمته سحابة خمسين عاماً.

وبعد أشهر كان الاسكندر ينصبُ جسراً من الزوارق على البوسفور ويشكُّ سيفه في الشاطئ الشرقي يطمره في التراب، مبقياً، كما قال، مجالَ تمجّد لمن سيبحث عنه.

ــ الاسكندر على أبوابنا، زأر مِرْدِيا في البرلمان الصوريّ.

ــ لا، أجابهُ آخر، انه سيتوجّه إلى عاصمة داريوس.

ــ صور هي الطريق إلى داريوس.

ــ تتشاءم، يا مِردِيا. تراك بتّ تخاف ؟

فلم يتنازل مرديا إلى الردّ. واستطرد:

ــ أوَ يتركُ المقدونيُّ أساطيلنا سليمة ؟ لم ينس الأغارقة « سلامين ». كانت نصراً لهم. ولكن سفننا هي التي ردّته باهظَ الثمن. تجب تقويةُ الاسطول وتعزيز تحصينات صور الجزيرة.

ــ صور لا تُغلب، قال سياسيٌّ شاب.

فوقف الجميع ورددوا النشيد الذي مطلعه « صور لا تغلب ».

إلا الشيخ مرديا. بقيَ صامتاً يتأكّل اسنانَه الغيظ.

ولمّا أتمّوا النشيد

— مرّة غُلبت صور، قال لهم بهدوء، فلتكن عظة.

واتخذ الشيوخ قرارات خطيرة في جلسات دامت ليالِيَ ثلاثاً متعاقبة.

لكن مِردِيا بقي غيرَ راضٍ.

وسُمع ذات يوم يقول:

— سيَضطروني إلى العمل وحدي.

جيشا الفرس والأغارقة يتجابهان الآن عند انطاكية.

داريوس الثالث على رأس ثلاثمئة ألف مقاتل، والاسكندر متوغلّ في مضيق ليلان على رأس جيش يقال حُفنة.

— صبيّ من صور في الخامسة عشرةَ يريد مقابلة الاسكندر.

— لِيدخلْ.

وما هي حتى أخذَ جيشُ الفاتح يتراجع.

ولكن داريوس هرب في اليوم التالي، مُخلّفاً في ايسوس تسعين الف قتيل، وعشرة آلاف فارس، وأسرى عدِيدين بينهم أمُّه وامرأته واخته وابنه وبنتاه وعشرات الوصيفات. وترك وراءَه ثلاثة آلاف وزنةٍ من فضة.

ما كادت تصل الأنباء إلى صور حتى انعقد البرلمان بجميع أعضائه الا مِرْدِيا.

ـــ كان يستقبل وفداً من لدن الاسكندر، جاءه يقدّم شكر بطل ايسوس، وقد حمل اليه هديةً ثمينة من ثلاثين وزنة.

فقام المجلس باجمعه إلى قصر الشيخ.

ـــ المسْألة سهلة، قال مِرْدِيا للمستوضحين، وددتُ ان لا أورّط صور، فورّطتُ نفسي.

« عندي هذا اليتيم ربّيته منذ هو في الثانية، فكَبُرَ، لا ذكياً ولا مسدودَ الذهن، ولكنه يلذّ له حلُّ المعضلات.

« هو اليوم يناهز الشباب. اليس كذلك، يا اسكندر؟ عذراً لقد نسيتُ أن أقول لكم انه، هو أيضاً، يسمّى باسم رجل اليونان، لصدفةٍ أو لغير صدفة.

« ما عمِلتُ يوم غلبتموني في البرلمان؟ أرسلتُ الاسكندر الصغير إلى الاسكندر الكبير. ويبدو انهُ وفّق. مَرّ

صدفةً بجبل داغ، فرأى كيف تسيطر جحافلُ الفرس الجرارة على تلك القبضة من الوف الاسكندر.

« وكان أن نصح المقدونيَّ باخلاء المكان ».

وقال الصبيّ:

ــ وصفتُ له الموقع، فاذا بنا ننتهي إلى الاستنتاج الواحد: ضرورةِ التراجع إلى ايسوس.

« وانتصر ».

راح الجميع يطرون دهاء الصبيّ.

وعرض عليه رئيس ندوة الأغنياء منصباً حكومياً.

ــ لا لا، قال مِرْدِيا، إنّ له شغلاً في قصري أنا. عندكم قد يصطدِم بمن يبخلون على حصوننا بالمال.

كان قد اقبل الهزيع الثالث من الليل، ولأنّ بعضهم لم يستطع ان يعضَّ يدَ مِرْدِيا، قبّلها ووضعها على رأسه وتمنّى له ليلةً طيبة.

ــ الاسكندر يهاجمنا.

ماذا ! بعد انتصاره في ايسوس، وفقاً لخطّة فتىً صوريّ، يروح يجزي صور ناراً وحديداً ؟

هذا ما كان يتخطّى عقولَهُم في المملكة.

ولكن الحوادث كانت تجري سراعاً.

استسلمت له أرواد نفسها. ولما رفض عروض الفرس، الا اذا اعترف له داريوس بمُلْك آسية، قامت صيدون إلى استقباله.

الفاتح يقترب.

صور الآن مُوحَدة!

وقرطاجةُ بعيدة.

وقام أعضاء البرلمان إلى دار الشيخ مِرديا.

ـــ صديقُك، قال احدهم، صديقك يهاجمنا.

ـــ ما قولُكَ لو نسميّه صديقَ الذين أبوا عليّ تحصين المَمْلكة ؟

فوجموا للحجر يرميهم به مُصيباً.

ـــ انكم خونة، تابعَ مِرّدِيا، ولسوف تُصلبون على الشاطئ واحداً واحداً !

فعمَّ الاستنكار. وخرج البعضُ من قصر الأسد. لكنهم ما لبثوا ان رجعوا يستعطفون الرجلَ الذي. تكهّن، منذ البداية، بالمصير المخيف.

ـــ سنرسل إلى الاسكندر وفداً ليّناً قاسياً، قال رئيس ندوة الأغنياء، فهل تُريد ان يكون فتاكَ في اعضائه ؟

ـــ لا، زأر مرديا. ولو أن الاسكندر قادرٌ قدْرَ خدمتي له لما هاجم مدينةً كنعانية.

ودخل حاجبٌ يقول: « رسولٌ من لدن الاسكندر يريد مقابلة الشيخ مرديا ».

واستقبله الأسد بحضور اعضاء البرلمان.

وشعر الجميع بأن الرسول مكلّف ابداء أصدق كياسة. حتى اذا اخذ يُلمع إلى مطالب صعبة، قال مرديا موضِحاً:

ـــ أفهم من أقوالك أن سيّدَك لا يودّ فتْحَ صور، ولكنه يودّ ان يضحّي فيها للاله ملقارت.

ـــ هذه، بالتمام، رغبَةُ الاسكندر.

ـــ أو يصرُّ عليها ؟ استفهم مرديا.

فبدا الرسول حازماً.

فزأر مرديا:

ـــ إذن، أبلغه رفْضَ البرلمان الصوريّ. وقل له: قد يحطّم الاسكندر صور التي لم تُغلب. لكنها ستقضِم الزّمن بين يديه.

وخرج الرسول.

وقال رئيس ندوة الأغنياء:

ــ تصرفك نبيلٌ، يا مرديا. يَدخُلُ الاسكندر ولكن على جثثنا جميعاً.

وعندما خرجوا من قصره كان الأسد فَرِحاً.

وراح يردد:

ــ « يدخل الاسكندر ولكن على جثثنا جميعاً » هذه، هذه كلمة صور.

في مدى أسبوع ذهب الاسكندر الصغير، ربيب مِرْدِيا، ثمانيَ مرّات إلى الاسكندر الكبير.

ولكن عبثاً.

فبعثه مِرْدِيا مرّةً أخيرة يرّد إلى الاسكندر هداياه.

ولما عجز الاسكندر عن انطاق الصغير ولو كلمة، أدرك ان مِرْدِيا انما قصد بذلك قطيعةَ النهاية.

لم يمضِ يومان حتى كان الفاتحُ على ابواب صور.

تُراه أوجس ما سيكون من مصيره، أمام الحاضرة المتشامخة، فسلّ سيفه وقال: « مدينة البطولة سلام ؟ ».

بلى، لأول مرة، تهيّب بطلُ ايسوس عدُوّاً.

رأى ان احتلال باليصور ـــ مدينة اليابسة ـــ امرٌ صعب فاضطُرّ إلى انزال نخبة الجيش ثم حرسِه الخاص.

ثم أدرك أن عملياته على اليابسة ليست الحرب التي اعدّها له الصوريون. ان هي الا تحويلُ نظر وكسبُ وقت.

المعركة الساحقة الماحقة، تلك التي ستبرهنُ فيها الحاضرة الكنعانية عن ازدراء للحياة محبة بكرامة الحياة، هي معركةُ صور الجزيرة.

إن الذين اعتزموا أن ينتصروا، أو يموتوا على بكرة أبيهم، كانوا يعرفون ان يتغلبوا على الفَجَع والترف ثم على الجوع والعطش.

ـــ تُرى كان للصوريين سراديب تحت البحر، تمدّهم بالمأكل والمشرب، أم أنهم يعرفون، كبعض الثعابين، أن يأكلوا أشهراً ويصوموا أشهراً ؟

وانقضى على الحصار نصفُ عام، وكأن المعركة لا تزال في البداية. وكان فتيانُ الجزيرة يوجّهون إلى جيوش الاسكندر، مع السهام، رُقماً كُتبَ عليها بالاغريقية: « تعلّم كيف الحرب، أيها الاضحوكة... ».

ويغضب قواده للاهانة. فيقول:

ـــ وحَقّ زوش لكأنني أتعلّم !

وأقلع عن الحصار. ثم أمر بأن تردم الترعةُ التي ما بين المرفأين: الصيدوني والمصري. فشَغَّل نصف جيشه بقطع الشجر والصخر، وبدكّ القصور ودحرجة اعمدتها الضخمة إلى المضيق. بيد أنها كانت طويلةً ومضنية تلك العمليّة. نهكت الجيش وأضحكت البحر، صديقَ الصوريين.

ولكن الأنقاض تكثرت !

عندئذ هَبّ الصوريون إلى العمل.

ارتجلوا عصائبَ من السبّاحة الاشداء يغطسون إلى قعر المياه، ويُسهّلون لأدوات الاسكندر سيراً على بركات التيار. فينهار ما يكون قد نصب الفاتح. وتنهار آماله.

وتجري معارك في البحر، صدراً لصدر. ويُطعم الصوريون اسماكَهم من زهرَة أبناء مقدونية.

ويسيّرون براميلَ من الزفت والكبريت، في مثل الأشرعة، حتى اذا وصلت إلى عصبة من عمّال الاسكندر انفجرت نيرانها عالية تكوي وتشوي.

ويرى الاسكندرُ أن يضرب فينيقية بعضَها ببعض، فيسخّر اساطيلَ صيدون وجبيل وارواد وقبرس، يأمرها بصدّ المهاجمين وتحويلهم عن المشتغلين في بناء الجسر.

ويرى الصوريون، أخيراً، أن الحرب يجب أن تبدأ وبَدأوها.

حملوا على اسطول قبرس فدمروا ثلثيه.

إلاّ أن الأسكندر كان قد توقّع الامر، فاعدّ لهجوم معاكس ينشِب غور تَعَب الاسطول الصوري.

وهكذا لم يُعطِ الاسطولَ الصوري هدنةً، بل كَرّ من الشمال موقعاً أبطالنا بين نارين.

انقضى سبعةُ أشهر على الحصار، وقَلّ المأكُلُ، وصعب تكريرُ مياه البحر لتوالي الهجمات. وراحت النسوة في المدينة يغرين ازواجهن واولادهن بالحلى إن هم قاتلوا رُغم الجوع والعطش.

وكانت بعضُهُنّ ترمي بولدها إلى البحر، أو تقتل نفسها، صارخة في وجه زوجها: « لم يبق شيءٌ. إمضِ إلى المجد ! ».

ورحن يتفنّنّ في التضحية، فتقصد السّباحات، افواجاً افواجاً، إلى الأسطول المقدوني، فلا يصل من الفوج سوى واحدة...

ولكنها تكفي !

ها هي بارجةٌ مقدونيّة تنفجر. ويتطاير نارٌ ورجال.

الا أن للبطولات حدّاً، ولو أنها من هذا الضرب العَجب وابطالها، كذلك، نسوة.

وشعرت صور الجزيرة بأنها هالكة، فتنادى القواد وعقدوا مؤتمراً تحت النار والشواظ، لم يستغرق سوى دقائق، خرجوا منه ووجوههم تطفح بالبشر.

وقيل أن امرأتين، من اللواتي استبسلن في الأسطول، اشتركتا فيه مسموعتَي الصوت.

ما تقرر في ذلك المؤتمر ؟

سرٌّ طُوي إلى الأبد.

كل ما يُعرف ان خمسةً من الذين ائتمروا قاموا إلى البارجة التي يقاتل عليها الشيخ مِرْدِيا، يحملون اليه رقيماً كتب عليه بالدم: « إن قوّاد صور الجزيرة، الذين اعتزموا ان يمضوا في القتال حتى الموت أو النصر، يبعثون إلى مِرْدِيا، قبل خوضهم المعركة كجنود عاديين، بتحيتهم له على اثنين: انذاره المجلس قبل سنة، ومقاتلتِه ــ رغم سنّه ــ في خط النار الأول ».

كان مِرْدِيا يتسلّم الرقعة عندما لفته ربيبُه:

ــ ها هو الاسكندر يُطلّ على السور.

ويصرخ مقدونيّ.

ـــ الاسكندر يدعو الشيخ مِرْدِيا إلى مقابلته. ومن أجل ذلك يأمر الحملة المقدونية وحلفاءَها بأن يكفّوا عن القتال.

ويتوقّف السلاحان.

وتكون هنيهةُ صمت أكبرُ من التاريخ.

وتشخصُ العيون إلى بارجة مِرْدِيا.

ترى ما يفعل الأسدُ الصوريّ ؟

إلاّ ان مِرْدِيا بدا على قادمِ السفينة وإلى جانبه رجلٌ يصرخ:

ـــ إن مِرْدِيا يبلّغ الجيش المقدوني وحلفاءَه انه يرفض مقابلة الاسكندر. ان الذي داس قداسَة الأرض الصوريّة لأشرس من الذي مزّق شرف الصداقة .

وعاد المقدونيّ يقول:

ـــ إن الاسكندر، الوفيّ لصداقاته، يؤمّن ربيبَ مرديا على حياته.

وفجأة سُمع صوت الصبيّ:

ـــ ان ربيب مرديا يؤثر الموت إلى جنب سيّده، على الحياة في بلاط الاسكندر.

عندئذ غاب الفاتح من على السور.

واستؤنف تبادل النار.

وراحت بارجة مِرْدِيا ــ ومرديا على مقدّمتها بهيكله العملاقي الاغبر ــ تختَرق خطّ اللهيب تَرشق وتُرشق، حتى احترقت بمن فيها.

صُلِب على شاطئ صور ألفا مقاتل، وأُعدم ثمانيةُ آلاف، وسُبي ثلاثون الفاً، وبيعت النسوة والاولاد عبيداً، وشُتِّت شملُ الباقين إلى قرطاجة. ولكن الاسكندر كان يقول:

ــ اثنان توقف عندهما خيط حلمي: صورُ العظيمة ومرديا أبو الذي أكسبني إيسوس.

أفضل من وضع كتابا

عام ٩١٢ للمسيح، كان في القصر المَلكي بأريفان شيخٌ مهيب ينازع.

الاطباء يدخلون عليه ويخرجون، ثم يتوجّهون إلى مقاصير المَلِك يُدلون برأيهم في سير المرض.

ــ هل من امل ؟ يسأل سنحاريب.

ــ املّ ضئيل، يتمتم بعضهم. ويَسكُت آخرون.

ــ ولكنْ، ما يقول هو عن نفسه ؟

ــ الحقيقة، يجيب كبير الاطباء، أن العالِم الشيخ لَيُضللنا. نُشخّص حالةً فيردّنا إلى أخرى، ويروح يعبث

ويضحك: ليتنا نقدر على تناسي شخصيّته الطاغية.

وتتغضّن جبهةُ سنحاريب.

ــ سنذهب نحن إليه. تعالَوا تعالَوا. قسطا بنُ لوقا يجب أن لا يموت.

ويترك المَلِك قاعةَ العرش، فاذا بالباب طبيبٌ شاب يَبكي.

ــ المعلّمُ ينازع !

ــ هذا رأي، يُقاطع كبير الأطباء

فيُصرُّ الطبيب الشاب:

ــ يا ليت ! مع أن ذِهنَه في ذروة توهّج.

فيحثُّ المِلكُ الخطى والجميع خلفه كأنما هُم في موكب.

ها هي الأعمدةُ من القصر المَلكي تغيب خلف الأعمدة، لا تقِلُّ مهابةً عن وجه سنحاريب البهيّ إلى تجهّم.

ويُبصرون بعيد يُطفئ النار في مجمرة من ذهب، معنَّقةٍ عالية، يرتفع منها دخانُ ندّ.

ــ لماذا ؟ يسأل سنحاريب.

ــ عفوَ مولاي، الطبيبُ الشيخ تُزعجه رائحة الندّ.

ــ أطفِئْها.

ويُكمل الملِكُ سيره.

هو الآن امام مقصورة المريض الكبير.

فيقول قائل:

ــ الطبيب يُحشْرِج.

فيتهيّب سنحاريب قبل الدخول، ثم يدفع الباب بتؤدة.

انه الآن لعِنْد السرير، أمام الوجه الحبيب المتألّق.

ــ أنا سنحاريب، يا عزيزي قسطا.

فيُدير العظيم عينيه، فاذا هما ملآنتان بالحياة، ثم تروح ابتسامةٌ تلّون فَمَه.

ــ عُذراً، يا مولاي، هذه المّرة لن أقوم لك. المرض... المرض...

فيصطنع الملِكُ المَرَح.

ــ هذه المرّة، امسكتك يا ابن لوقا. قلتَ « المرض » مرّتين. لكم كنتَ تأخذها على المؤلّفين. تزعمُ انك لا تكرِّر كلاما. « أقلّ ما يكون من قول لاكثرِ ما يكون من

معنى »، « كلامُكُم اجعلوه من ضوء »، كنتَ تردّد في تلاميذك والمريدين.

فيهزّ الطبيب رأسه.

ــ تَذكُرُ ذلك، يا مولاي ! ما أبعدنا عنه اليوم. ولكن أعنّي، رعاك الله، وددتُ لو أجلس.

ويحار سنحاريب: أيستجيب لطلب المدنَف الغالي أم يُحجم ؟ ويدركُ قسطا ما يجول في ذهن الملك.

ــ إفعل، يا مولاي، لا تخشَ : لا يزال بي بقيّةُ رَمَق. بوسعي أن أُرحِّب بك كالمعتاد، ريثما يزورني صديقي الموت.

فيعود الملك إلى اصطناع المَرَح.

ــ صديقُك الموت ؟ ركلتَه برجلك، قال لي الأطباء.

ــ ضع زندَكَ خلف ظهري، يا سنحاريب العظيم. لآخر مرّة تمدّ يدك إلى طبيبك.

ويندفع فاذا هو جالس.

ــ هكذا. والآن نتحدّث. طمأنك الاطباء إلى أن هناك أملاً ؟ يعرفون مدى ما يكون من تأثّرِكَ فلا يصدقُونك القول. اذكياءُ هم إلى حد ان يدركوا انه لم يبقَ لي سوى

دقائق. قد تطول إلى أربعين، إلى خمسين. ولكنها، على أيّ حال، لن تبلغ الساعة. بيد أن وجود مولاي إلى قربي سيُفيد. وقد يزيدها. تفرحُ في وجه من تحبّ فتمدّه بقطراتٍ من إكسير الحياة. أتذكُر، يا مولاي، يوم استقدمتَني من بغداد ؟ هذا ليس امس. ولكنه كأمس. لقد عمِلتُ شيئاً هنا ! ألا تُقرّني ؟ اثنان وثلاثون كتاباً في الطب...

ويقاطعه الملك:

ـــ وفي سائر العلوم ؟ في الفلك، في المنطق، في الرياضيات والفلسفة والتاريخ، هل تذكر كَم كتاباً وضعت ؟

ـــ لم يبلغ عددُها عدد كتبي الطِبيّة. حسبتها منذ هنيهة. كان أحدهم يفحصني وكنت أعدّ الكتب...

ـــ وكم بَلَغتْ ؟

ـــ عدا التي على الطب، تسعةً وعشرين.

ـــ أواثقٌ بأنك لم تنسَ ولا واحداً ؟

ـــ من التي وضعتُها أنا ؟ لا. أما التي نقلتُ فلم احسِبْها.

ـــ وأيُّها أحبُّ اليك ؟

ـــ لربما كتابي « المرايا المحرقة ».

فيقول الملك:

ـــ و « الاسطرلاب الكروي » ؟ اما تحبه ؟ و « الجزء الذي لا يتجزّأ » ؟

فتتهلّل عينا المريض:

ـــ حقاً يعجبك هذا الكتاب، يا مولاي ؟

فيؤكّد الملك بهزّة رأس، ويقول:

ـــ رائع !

فيستطرد ابن لوقا:

ـــ وأنا أُحبُّه. لربما كان لموضوعه يوماً أن يضجّ.

ويسأل الملك:

ـــ ما تقول بمؤلفك « شكوك كتاب إقليدس » ؟ رحتَ فيه تستدرك ما فات أبا الهندسة.

ـــ إنه جيّد. ولكن إقليدس عظيم.

ـــ تصطنع التواضع، يا ابن لوقا، ويردّدون، في بغداد، أنكَ أعلمُ علماء العصر.

ـــ في بغداد ! انهم طيبون. يلجّ بي إلى عهدهم حَنينٌ، فارجع شاباً. ولكن هل تعرف، يا مولاي، انني مرتاح الضمير لأمر: انني عرّفت تلامذتي إلى نفر من الاغارقة

اعتبرُهم أساتذتي. مَنْ نقلتُهم إلى العربية يُحرّكون العقل.

فيقول الملك:

ــ من تعني ؟ ارستارخوس واتوليكس ؟

ــ ولم لا تذكر هبسكليس وديافنتوس وثيودوسيوس وهيرون ؟

فيسأل الملك ؟

ــ وأيّهم تؤثر ؟

ــ أؤثر ثيودوسيوس. هو الذي عنه نقلتُ كتاب « الكرة ».

فيتعابث الملك:

ــ هذا، اعرف لماذا تحبُّه. إنه مواطنك. من طرابلس هو، من لبنان.

ويكون الطبيب الشيخ، في اثناء تلك الالتفاتة المَلكية، قد نسيَ ثِقلَ المرض عليه واندفع يتكلّم. الا أن تَعباً عاوده، فاذا هو يَلوي رأسه، فيتلقاه سنحاريب.

ــ أرجعْني كما كنت.

واذا يستعيد وَضْعَ النائم:

ــ يبدو، يا مولاي، انني سأموت... لا تحزن كثيراً.

تلامذةُ المعلّم هم دائماً خيرٌ منه. والا لما كان معلّماً. ولكنّ لي اليك رجاء: ان تبعث إلى بعلبك، مَسقِط رأسي، بنسخة من كلّ كتاب لي. إختر لها رسولاً أميناً، وليَقُل لأهل المدينة الجميلة إنني قضيت عمري أحلم بالعودة إلى لبنان.

وكانت « لبنان » آخر كلمة لفظها قسطا بن لوقا البعلبكي، الطبيبُ والفيلسوف والفلكي والمؤرخ والعالم بالهندسة والموسيقى. ذاك الذي سيعتبرونه « اكبرَ منطقيّ في لغة العرب »، ويقول فيه ابنُ القفطي « إنه افضلُ من صنّف كتاباً ».

أما سنحاريب فسيبني له ضريحاً بقبّة ولا أجمل، وسيكرّمون قبره، كما يقـول عبيـدُ الله بن جبرائيـل، « كاكرام قبور الملوك ورؤساء الشرائع ».

.. وهو ابن ثلاث عشرة

هذا هو يخترقُ حقلَ سنبل، ووراءهُ رتلٌ من اولاد مبعثرين.

ومن بعيد يصرخُ بهم ناطور:

ــ هاي... يا أولادَ الشر، خربتم الزرع !

ــ سيهجم علينا، يقول أحدُ الأولاد. الا تنظرون إلى عصاه ؟..

ــ صحيح ؟ يجيب هو. لماذا ؟

ــ ندوس الزرع، نُميت الزرع.

ـــ بالاحرى نفرِّقُه بعضه عن بعض. يصبح أقوى. « أنا جئت لأفرّق ».

ويسكت الولد ناقلُ غضب الناطور. وهناك في البعيد يسكت الناطور. تراهما سمعا الكلمةَ التي سيتفوه بها بعد عشرين عاماً، مخاطباً من سيكونون قد عرفوه وعرفوا من هو ؟

ويمشي... ويمشون...

الحقلُ الذهبيُّ يغدو أجمل، وقد انطبعت عليه شُقْرةُ شعره الرجوليّ الأجمّ.

ويبعد عنهمْ كثيراً.

وما هي حتى يلتفتَ اليهم ويصيح بملء صوته:

ـــ من منكم يذهب إلى القرية يجلبُ لنا مأكلاً ؟

واذا الجواب من أفواه الجميع:

ـــ أنا.

لكم كان بودّه أن يقولها واحدٌ منهم، لا أكثر، هذه الأنا التي لا تأبه الا للمأكل...

ها هو الآن على حافة بئر.

لا أحدٌ على هذه البئر.

لكنّ قلبه يطير في الغد، في السنوات البعيدات، يوم يكون على البئر هناك صبيةٌ بعمره أو أقل.

ــ اسقيني. أنا سأسقيك من ماء عَجَب. مَنْ شَرِبَهُ لا يعطش.

ــ تقولها ؟!... أوَ أنتَ أكبرُ من النبي الذي أعطانا هذي البئر ؟

ويكشف لها أسراراً.

فتهلع.

ــ ويحي ! يعرف ما لا يعرفه إلاّ الله.

ــ ومن قال لك إن الله لا ينزل إلى الأرض ؟

ــ ينزل نعم، ولكن لا ليسكنَ بيننا.

ــ بلى، يا حلوة. الناس طيبون أصلاً، وإن هم ضَلّوا فإلى وقت. والله لا يحب السُكنى إلاّ مع خلائق يديه.

ــ أنت هو.

ــ اسكتي.

قالها لأنه كان لا يزال كآبنِ ثلاثَ عَشْرة.

وتطير صوب القرية:

ــ التقيْته. صدقوني. التقيت الله.

هذا فيما يكون الاولاد قد جاؤوا بخبز وعسل. ويتحلّقون. أمّا هو فيظل بعيداً.

ــ لماذا لا تأكل ؟

ــ كانت هنا أختُ ملائك. تبادلنا القول. لم أبقَ بحاجةٍ إلى مأكل.

ذات يوم يدنو منه أحدُ الاولاد:

ــ رفاقي، يقول، أنفقوا في السوق أكثر مما ينبغي.

ــ وأنتَ تُحِبّ المال أكثرَ مما ينبغي. يجيء يومٌ تبيعني.

وتتجهّمُ وجوهُ الاولاد:

ــ هو ؟! نقتله إنْ فعل.

لكن الولد المعنيّ بقي خارج تفكيرهم. راح يضحك. وبعد أن شكّ قليلاً رفع عينيه:

ــ لربما كان طريفاً أن أبيعك...

ابنُ الثلاثَ عَشْرة في الناصرة الآن.

أمّه مقتعدةٌ درجاً على باب بيتها تتشمس وتغني، وهو مُرْتمٍ على ظهره ورأسُه في حضنها.

ــ أُمّي، هذا الجبل الذي فوق يُعجبني.

ـــ لبنان !

ـــ نعم أُحبه لبنان. أتصورنا ذاتَ غدٍ أنتِ وأنا في واحدةٍ من قراه هناك. اسمها، يا ربّ، ما اسمُها ؟... مانا... سانا... قانا... شيء كهذا.

« ويكون أن تطلبي مني تحويلَ عنصرٍ إلى عنصر آخر. ماء، مثلاً، إلى خمر.

« وارفض.

« كأني لست أنا الذي يقدر.

« لكنك تُلحفين.

« كيف تعرفين، يا أُمّ، أنني أقدر ؟

« وتقولين لي:

« ـــ وحدي أنا أعرف. أما أنا التي اليها جاء ملاك العليّ وبشّرها بك ؟

« علي انني أُصِرّ. وأُخاطبكِ غيرَ رافعٍ كلفة. ببرودة. لا « يا أُمّي » وانما بشيءٍ من جفاف.

« ـــ لن افعل، أقول، لقد تقرّر، فوق في السماء، بيننا نحن الثلاثة، ابي والروح وأنا، أن تكونَ الساعةُ غيرَ هذه الساعة.

« سوى أنك تصرُخين:

« ــ انتم قررتم هذا. أنا، لا. أطلبُ منكَ أن تخرب موعدَ الساعة.

« وأخربه.

« لماذا أفعل ؟ الأني أُحبّكِ اكثر من الكلمة المكتوبة ؟ ألأنّ الله، من أجل الانسان، يعمل ما لم يكن مرّ ولا يبال الله ؟ ».

وتغني مريم مداعبةً شعرَه فيما تكون ثَقُلت منه الجفون:

ــ نمْ، يا حبيبي، نمْ.

« ما اجملَ ما به تحلم ».

ويستيقظ:

ــ تعرفين، يا أمّ، نسيت... نسيتُ أن أُخبرك...

ــ ماذا ؟

ــ إنني بعد أن أكون زرت لبنانٍ اتبدّل آخر.

« يكون رفاقي الاولاد قد ذهبوا معي إلى هناك وهم لا يعرفون. بعد أن اجترحَ الاعجوبة هناك، كما تطلبين، يصبحون يعرفون.

« لكنني سأُولد في قانا، ارض لبنان ».

ـ وبيت لحم ؟

ـ لا، لن أنساها. سيسموني يسوعَ بيت لحم اليهودية، ومسيحَ قانا اللبنانية.

لانهم في قانا يكونون قد آمنوا بي.

ـ نمْ، يا حبيبي، نمْ.

« ما هي المرة الاولى التي يتعظّم فيها اسمُ لبنان ».

ويردّد هو وقد اخذه نصفُ اغفاءة:

ـ اليّ ! اليَّ، يا عروستي، من لبنان !

* * *

يكون الاولاد على بحيرة.

ويجيئهم غريب:

ـ صُدّوقيٌّ أنا.

فيقاطعه:

ـ إذن لا تؤمن بالقيامة.

ـ نعم لا أؤمن.

ـ مع أن أعظَم شيءٍ أُعطيَه الانسانُ هو أن لا يكفّ عن وجود. تقبل أنت أن تبقى الأرضُ موجودةً إلى شبه أبد، وأنت لا ؟

فيؤخذ أحدُ الاولاد بالكلمة. ويفتح عينيه معجبتين:

ـــ ما تُعطينا، يا معلم ؟

لا تسمّني هكذا. ما أنا الا ولدٌ مثلُك.

ـــ اعترض انت، هذا شأنُك. اما انا فمعلّمي انت. رُدّ على سؤالي. ما ترى تعطينا ؟ الحياة ؟

ـــ نعم. على أنها أكبر.

ـــ ما هي ؟

ـــ ان لم تكن الحياةُ ابديةً فهي موتٌ آجل.

ويكمل الولد فرحا:

ـــ هذا أنا وُلدتُ من جديد.

ـــ صرتَ كثير الايمان، ولدتَ من فوق.

قالها ومشى.

ولحقته ابصارهم.

وإذا هو يمشي على البحيرة.

كانوا على البحيرة في مرة اخرى. كانوا يصطادون. وقال واحدٌ لكثير الايمان:

ـــ هذه العناصر التي تضرب البحيرةَ ستُغرقنا.

ـــ اسكت. سيجيءُ هو ويُسكِتُ العناصر. هي أيضاً أولادٌ له.

ويجيئه فتيانٌ غلاظُ القلوب.

ـــ الملك يظلمنا. ما نعمل ؟

ـــ ارشقوه بأبشعِ الاسماء. وحدَهُ الظلمُ معاداةُ الله.

ـــ لا نجرؤ. يقتلنا.

ـــ وأنا، ألا يقتلني ؟

ـــ لكنك انتَ لم تجرؤ على قول كلمةٍ تُغضبه.

ـــ اسمعوا. اذهبوا إلى الملك وقولوا له إنني سمّيته الثعلب.

ويلتفتون بعضٌ إلى بعض:

ـــ حقاً تفوّه بها ؟

وتأخذ جباهُهم في التسامي.

ويقول واحد:

ـــ نعم منذ أن سمعناه صرنا بمستوى الشمس. أحراراً.

ـــ من أنت ؟ قال له شيخ، حقاً أنتَ الله.

ـــ تماماً كما قلت.

ويهرب الشيخ مذعوراً.

ويملأ الدنيا صراخاً:

ــ تعالوا واسمعوا، رأيت ولداً يجدّف. اقتلوه.

ذاتَ صباح، وهو نائم، كعادته، على درج بيتهم، ورأسهُ في حِضن أمه، يأخذ في الدردشة:

ــ رأيتني، يا أُم، امام خشبتين كبيرتين. ودُعيت إلى حملهما.

ــ كل يوم تحمل الخشب.

ــ هذه المرة كانت الخشبتان ثقيلتين. وقعتُ تحتهما.

ــ لا تقل.

ــ وفوق، على الجبل، نُصِبتا بشكلٍ غريب: الواحدة فوق الأخرى وكأنها ذراعان للأخرى. وصعدتُ عليهما.

ــ لتفعلَ ماذا ؟

ــ لأرى البشريةَ كلَّها، والطبيعة والكواكبَ، والنجوم. وأنقذ الجميع.

« ما أجمل ما عملت. لكن شوكة وخزتني في جنبي ».

وتسأله أمه لهيفة:

ــ هل وجِعْتَ ؟

ــ وجعْتُ. الا أن عينيك وقعتا على الجرح.

ـــ عيناي ؟

ـــ كانت الدنيا متجمّعة فيهما. وعلى ابصارك تطيرُ الشعوبُ في شبه صلاة... وتجيء الي... لربما بسبب كل هذا الحب شُفيت من وخز الشوكة.

قالها ابنُ الثلاث عشرة، فيما كانت تُثقُلُ جفونُه.

ونام.

وراحت يدا أمه تداعبان شَعراً أشقر.

عينا إيلتّا

كانت الهواجس قد قَلّبت إيلتّا طوال الليل. فما ان تدحرجت أُولى أضواء الفجر على شبّاكها حتى نفضت عنها الغطاء وتجلببت بمعطفٍ من حرير يُجرّر، ثم شدّت شريطة عريضة، مدلاة من السقف، فسُمعت رنّةٌ أقرب إلى الخشيش.

ودخلت عبدةٌ نوميدية.

ــ أعينيني... يجب أن أحضُر جلسَة الشيوخ... تسريحةُ شعري لا تهُمُّني كثيراً.

« سيرى الشيوخ أننا لن نسكت... أعرقُ الناس في

السياسة، هؤلاء الصيادنة. ومع هذا مِراسهم صعب ».

والى العبدة:

ــ هل استيقظ أخي ؟

ــ مولاي لم ينم في القصر. ولقد أرسل، باكراً، في طلب وثيقة.

ــ كفى سأكمّل الباقي. أحضري طعامي إلى هنا.

إيلِتّا الآن وحدها في الحجرة. تنقّل ابصارها من سريرها العالي، القائم على عَمودين من ذهب، إلى الحائط البحريّ، حيث تمثالُ جدّها ايتوبعل ــ قَرْمِ السياسة الصيدونية في عهده ــ فتتذكر كلمة مأثورة عنه في الشيوخ: « إنهم دُمىً بين يديّ ». ولقد دُعي اخوها باسم الجدّ تيمّناً. أفتراه هو أيضاً سيلهو بهم يوماً ؟

لقد سمِعَتْه امس يهدّد. فهل تكون فاتحةَ عهد يحطّم فيه السياسيُّ الشاب شوكةَ المجلس المشاكس، ام انه سيسقط بضربة خنجر من شيخ مقهور ؟

انها لن تكتفيَ ببث الارصاد والتّبع لحماية اخيها، زينِ النخبة الصيدونية. ستكون هي في الندوة ترعاه. ستدس خنجرين في صدرها ولن يجرؤ أحدٌ على تفتيش سليلة ربيهام حفيدة إيتوبعل. ولكن هل يكفي كلُّ هذا ؟ كل

واحدة من أدوات الزينة التي أمامها تلتمع الآن تودُّ، هي أيضاً، لو تكون سلاحاً في يدَيْ إيلِتّا: اصبعُ الحمرة المرصع بالفيروز يمكنها ان تَرشق به. ميلُ المكحلة قد يُصبح أفعلَ من خنجر. أما المرآة الفضيَّة المغطّاةُ نصفَ الحائط ــ هديّةُ أمّها منذ خرجت إلى أوّل حفلة ــ فتعرف، مقدّماً، انها لن تنتقل من مكانها لتُرمى، من رواق الندوة العالي، على زمرة المتآمرين على ايتوبعل. وتمضي إيلِتّا منقّلةً طرفها من الطست والابريق المصنوعين من ذهب خالص، إلى مكاوي الشعر ومكبس الاهداب، إلى مِزهريات المرمر مؤنساتِ الزوايا. وأخيراً تنتقي من كُلّ ذلك ما صَغُر حجماً: علبة البودرة تشج بها رأساً عنيداً.

إيلِتّا الآن ارتدت ثوبَها الأصفر المطعَج، وراحت ترفعه يدها تختبر جمال انجراره على الرخام، فيما ستكون مرتقية أدراجَ النَدوة. أما من حلاها فلم تختر سوى دَبّوس ينتهي بعنقود من السفير شكّته في شعرها، كما زينت صدرها الضامر، وسط تدفاق الحرير، ببضع وردات بيض احداهُنَّ سوداء خمرية.

وعندما دخلت الخادم تحمل الطعام على طبق فضّي، قالت: « لا أظنُّني جائعة... عودي بكل هذا... عذراً ».

واغتنمت العبدة الفرصة:

« لأنتِ أجمل من الجمال.

« تحكين بعلة صيدون أناقةً

« الا أن لكِ عذوبةً كانسِدال الضوء على قِمم لبنان ».

فابتسمت إيلتّا تقول:

ــ منذ متى حفِظتِ هذا الشعر ؟

ــ علّمنيه، طَوال الاسبوع، واحدٌ تدوسين وجودَه كل يوم.

شارع الكبيريم مديد الطول، يبدأ من قصر آل رِيبهام على المرفأ لينتهي عند ندوة الشيوخ في أقصى الشرق. وهو مبلّطٌ يطقُّ تحت سنابك الخيل. فراحت مركبة إيلتّا تجتازه بسرعة غير متوقفةٍ الا لتحني رأسها عند هيكل بعل شميم الذي كان يغالب السحب بقبابه الثماني الموزَّعة النقوش على جلال. حتى اذا بلغت هيكل ملقرت، إله الحرب، تركت مركبتَها وولجت بوّابته الحديدية، المنفرجة إلى ربعها وسط حائطٍ من المرمر الأسود الساطي.

لم تتبين شيئاً في داخل الهيكل، لوفرة النور الذي كان ينهك عينيها. حتى اذا ارتاح طرفُها قليلاً بصرت باخيها

جاثياً يصلّي. وقبل ان يرفع الشابُ طرْفه إلى العلاء، تكون هي قد قفزت إلى الخارج تقول للسائق:

ــ طِرْ!

إلا أن أخاها سمع أحد افراسهم يصهل في النهايات من شارع الكبيريم. فسأل فقيراً مِصرياً جالساً على الرتاج:

ــ أهْي أُختي التي مرّت؟

ــ نعم، يا سيدي.

ــ ولكن هل تعرِفُها انت؟

ــ لا يجهلها إلا الشرُّ والبخل...

فيضحك له ويُجزل العطاء.

انعقدت الندوة باكراً للتناقش في مخصصات الجيش. وكان ايتوبعل يرتئي ان تُضاعَفَ الاعتماداتُ الحربية، بعد أن راح قائدٌ مغامر يُوطّد مملكةً على حدود صيدون.

طال النِقاش في غيرِ طائل: المجلس يغار على الخزينة... وايتوبعل يقول بتقوية الجيش، مهما كلّفت من باهظة الضرائب.

ضرائب ويقرّها مجلس الاغنياء؟ انها ستصيب الكتل المالية التي يمثّلون. كان لا بد ان يجازف برأسه من سيعاندهم.

ويكون الكلامُ مجدَّداً لايتوبعل :

ــ لن أُلقيَ خطاباً، ايها السادة. إن هو الاّ تحذير. على تخومكم شعبٌ لا جيش وحسب، ولا قواد مجازفون. شعب بِنسْوَتِه واطفاله وهياكله وقبوره. يجب قَتْلُ المسخ قبل أن يكبر ويقيم مُلكاً ضخماً تغدو بلادكم بضعةً من ارضه. ثرواتُنا او بلادنا، فاختاروا !

فقاطعه احدهم:

ــ لن نصل إلى هذا.

ــ مَن قال ؟ وعلى حَدّ السيف سقطت مدُن الجوار. الحلّ ؟ ليس في ما تعوّدتم من نقاش. القضيّة اكثر من تبليط شارع، شراء رياش لقصر، ندْب شخص إلى زيارة دولة، مما تؤجّلون او تُقرّون.

« سنفتح صناديقنا أو تنهزم صيدون ».

ــ أو تريد أن نؤلّب الشعب علينا بفرض الفرائض ؟

ــ لن نؤلّب سوى جيوبنا. ضرائبُ على الثروات وتنحَلّ العقدة.

ــ الغُرم دوماً علينا ؟ أو ما غيرُنا في هذه المملكة ؟

ــ كلا، والدولةُ بأسرها موقوفة على خدمتنا، مسخّرةٌ لمصالحنا، نحن الأغنياء وممثلي الأغنياء ».

قال، فعَلتِ الجلبة في كل مكان:

ــ اسكِتوه.

ــ نطلب اعتذاراً.

ــ لقد مسَّ حرمةَ الندوة.

ــ أُطردوه.

كان قدْ تحمّلهم، حتى اذا سمع « اطردوه »، جحظت عيناه وانتفخت أوداجه وضحك ضِحكةً مُرِنّة راعبة.

ــ تطردونني ؟ انكم لتحمّلون انفسَكم ما لا تُطيق.

ــ الأمر منوطٌ بما هو اعظم منكم. منوط بالدستور. والدستور في عهدة الكبيريم. والكبيريمُ، جَلّ جلالُهم، ممثلون بالكاهن الاكبر وبالشعب ذي الحِسّ الذي لا يخطئ.

« ان انا اذعتُ على الشعب تفاصيلَ نقاشنا، افتظنون انكم ستخرجون من هنا ؟

فأجاب أحدهم ببرودة:

ــ أمّا أنا فأخرج.

فردَّ ايتوبعل:

ــ نعم، ولكن ممَّزقاً بالنواجذ والأضراس.

كان النقاش قد بلغ الذروة عندما قفزت إيلتّا من عربتها، ترتقي أدراج الندوة، مجررة ثوبها الأصفرَ الأنيق. فراحت الابراج الرهيبة والشبابيك المتشامخة من قصر الأغنياء تتناقض وعذوبة خطواتها الخاطفة. ولكنّ غنى الثوب وجمال تسريحة الشعر انسجما مع أناقة الممرات الرخاميّة المديدة، والقباب المتماوجة المشيقة، وتماثيل قاهـري الاوقيانوس، والآنية المتعالية بقدودها وبخورها تعاليَ روح الأمة صوبَ المجد وصوب الكبيريم.

إجتازت إيلتّا الممَّر تستنفد الزمن، حتى اذا قَرُبتْ من قاعةَ الاجتماع سمعت صوتَ اخيها يهدّد. وعند دخولها كان احدهم يبصق قلّة حيائه في وجه ايتوبعل:

ــ كلبٌ، ابنُ زِنى.

وأُسقِط في يد الشاب، وهو لم يكن يتوقع أن تتسع نَدوةُ الأغنياء لشتيمة، والتفت إلى أعضاء المجلس، واحداً واحداً، يفتّش عمّن يذود عن قدس المكان، فاذا هم جميعاً سكوت.

ــ أتوافقون ؟!

فلم يجيبوا.

سوى أن صوتاً رنّ من فوق.

ـــ لا، لا نوافق.

التفتوا، فاذا هم أمام إيلِتّا الجالسة في مقصورة آلها، تُطالعهم بجلال وصمت.

وبعد هنيهة:

ـــ قل لي، يا سيدي، هل شتَمكَ أخي ؟... أجب، إن الأمر لجلل.

ـــ إفرضي انه فعل.

ـــ أفرِضُ ! ما كان العار في أُسرتنا، ولو فرْضاً. شُرَفاءُ نحن أو نحن في القبور. لو أنّ أخي تفوّه بشتيمة أو تعرّض لعِرض، لغرزتُ في صدره هذا.

ولمع في يدها خنجر، فراح الشيوخُ يخرسون زميلَهم المتطاول، وبكى بعضُهم وصفّق الكثيرون. فاكملت:

ـــ لقد سكت أخي، لا لعجز، ولكنه تهيّب الكبيريم. نحن أبداً في حضرة الآلهة. أُسرتنا، منذ ألف سنة، في هذه النّدوة، ولكن لا لتلطّخها بعار. قلتَ لأخي انه كلب. لو انه ردّ عليك بمثلها لصار كلباً حقاً. ما كان يدافع عنه قضيةٌ مقدسة، حمايةُ صيدون !

قالت « صيدون » بلهجة من الوقار جمّدت الدم في العروق وجعلت الرؤوس إلى انحناء.

ــ وقلتَ عنه إنه ابن زنى. ما كان أخي هذا.

فمجَّ الشيخُ آخرَ وقاحةٍ في فمه:

ــ من يَدري ؟...

ــ انتَ. انتَ تدري أنك لا تنطق بالصواب. ولو انكَ قلتها صادقاً لما استمرّت اذني تسمعك، ولما مسستك بأذى، بل لرأيتَني جثّةً هامدة.

وكان لكلامها وقعُ الصاعقة، والتفت الجميع بحنق إلى الشيخ المتواقح، فاذا به يجمع نفسه وينسحب.

وحوّلتْ إيلتّا بصَرها إلى كبير الشيوخ:

ــ عذراً، يا مولاي، أُهين آل ريبهام فدفعتُ عنهم ولم أُهِن احداً. خدمات اهلي جَرّأتني على خرق قُدسات النّدوة التي أسهموا في مجدها. عذراً مرّة أخرى.

استُؤنفت الجلسة كأن شيئاً لم يكن. وراحت عينا إيلتّا من فوق ترعيانها بعظمةٍ وعذوبة، مما خلع عليها مهابةً لا توصف.

لأن إيلتّا تحترم الحق، ذكّرتهم بأن عليهم ان يحترموه. ففعلوا.

وأقرت الندوة فرضَ ضرائبَ على الثروات، ومضاعفةَ مخصّصات الجيش والاسطول، وإقامةَ سور آخر لصيدون.

وعندما رجعت مركبة آل ريبهام تطقطق في شارع الكبيريم، كان ايتوبعل واختُه في داخلها يغنمان صمتَ الظفر، فيما الجمهورُ المتجمّعُ على الأرصفة يهتف لهما ويصفّق.

أُفٍ لِهَا قرطاجة !

كانا في تلك الأمسيّة يتمشيّان على سِيف البحر، والبحر هائج.

الا أن الدنيا صحوٌ بهيُّ الشفق، محرورٌ، يجذب النظر ويخلع على قلبَيِ العاشقين شعورَ دِفء.

ــ لماذا، يا حبيبي، لماذا اكتمكَ سِرّاً لم يبقَ لي عليه صبر ؟ قالت الفتاة.

ــ سِرّاً ! أوَ بيننا اسرار ؟!

« أنلبا » خطيبة « ميرتا ». منذ وُلِدَتْ تعاهد أهلوهم على ذلك. ويوم كانوا يتلهّون في البيتين القرطاجيين بأن

لن يتزوَّجها اذا لم تبق جميلة، كانت أمّ « ميرتا » تصرخ:
« لا، لن يكون أجملُ من « أنلبا » حتى في صور ! »
وكانت الفتاة حسناء.

عينان سودوان ترصّعان وجهاً مشرقاً على بعض طول، وشعرٌ ليليّ اعتادت أن تشدّه من جميع منابته إلى الوراء فيكوّن أجملَ إطار لبشرة، وابتسامةٌ شَطْرة من صبح، وقَدٌّ مشيق يكاد دلالُه يوجع الأفُق.

ــ قُولي، قُولي ما هذا السرّ ؟

فاجابت:

ــ أُحِبُّ أن نعيش في « غادس » على الأقيانوس.

ــ هذا كلُّ شيء ؟

وراح « ميرتا » يقهقه...

هي تعرف انه موسِرٌ من فضل تعنيت، وان يدَه أبعدُ ما تكون عن بخل.

في غادس الجميلة تريد السُكنى ؟ في مرسئيل، في صور، في أوفير، على ظهر يختٍ أبيض يجوب جميع الأوقيانوسات ؟ لماذا لا ؟ انه، لو استطاع، انزل النجمة إلى عند بابها تُقِلُّها إلى نهايات الكون...

كان يحدّثها بشيء من هذا فتطوّقه بذراعيها العاجيتين.

أخيراً قالت:

ــ ولكنني اخاف ان يحملكَ أبوكَ على التّرسُّل للسياسة. لقد شاخ هو. ومجلس الأغنياء لا بد ان يتمثّل بواحدٍ من بيتكم. أفٍّ لها قرطاجة! ثلاثمئة الا واحداً ما يضير؟

فكظم الشاب بعضَ غيظ.

فتابعت:

ــ بوسعِ مجلس الأغنياء وحده ان يتعهَّد قرطاجة وممتلكاتِنا عبر البحر.

ــ ما لنا ولهذا الآن؟ قال ميرتا. أبي لا يزال قادراً على تمثيل بيتنا، وأمس عرضوا عليه ان يتولى شافطيّة البحر.

فاجابت بعصبيّة:

ــ ما أدري، ما أدري. انتم ابناءُ برقا لا يُركن اليكم. عِدْني بأنه مهما يكن من أمر فلن تزاولَ السياسة، عدني بأن نعيش عمرنا في غادس على الأوقيانوس.

ــ عُمْرَنا؟

ــ نعم. أنا لا أحِبُّ قرطاجة.

ما تراها قالت؟!

خُيّل إلى الشاب انه لم يسمَع كلمةَ الهول.

ولكن جداراً صفيقاً يبلغ النجم أخذ يعلو بين الحبيبين.

« أنا لا أحب قرطاجة... ».

تراها قالتها حقّاً ؟!

كان يحبّها كالنّور في عينيه، كطموح أهله إلى فتح العالم، كأمّه بالذات، كقرطاجة. اما الآن !...

ــ أنِلِبا، أنِلِبا، صرخ بها، إنّكِ لم تقولي ما قلتِه. استردّي، استرّدي طيّة من الزمن انقضتْ جدّفتِ فيها على الآلهة. شُدّيها من هوّة الدهر وباظافرك مزقيها. انها بَشِعة.

ــ أنا أعني ما أقول، يا مِيرتا. امس، أنبأتني العّرافة بأنني سأموت شابّة في قرطاجة. قرطاجة ! قرطاجة لا أحبُّها.

وتفرّس الشاب في تلك التي كانت حُلْمَ عمره، ثم راحت عيناه تجحظان.

كل ما بينهما انتهى.

انقضت سنون.

وذات يوم، دخل على مِيرتا رفيقٌ يسأله أن يقوم إلى قرب أنِلبا المصدورة.

ــ لا ! قال ميرتا.

ــ ولكنها تنازع...

ــ قلتُ: لا.

ــ لربما كنتَ تضيّع وقتاً ستبكيه غداً بدموع من دم: لم يزل لها من العمر بعضُ هُنيهات.

فاجاب ميرتا:

ــ اما هنيهاتي أنا فقد نفدت منذ زمن بعيد.

وقهقه.

قهقه كثيراً.

كان قَد جُنّ.

بيد أنه كان لا يزال يملك لفتةَ اعتزاز يُسرّحها على أسوار قرطاجة الملألئة المتشامخة.

بِلِتيسَّى ذات الغدائر الشُّقر

لم يكن لسيذرا من أصدقاء سوى منجيرةٍ قصب، رفيقةِ عمر، وقلبٍ يخفق له مَبْزغان الشمس.

يُفيق، الصبح، من حُلم لذيذ:

ــ أيّ غصن، يقول، لم تقلقه الحاني ؟ أيّ نجمةٍ لم تزُر دارتي تأخذ التماعاً وصفاءَ زُرقة ؟

ويَنسلّ من فِراشِه، ناسياً ان يتناول فطوره، علّه يسرق من بلبل عابر، أو من غمامة رسول، واحدةً من أبكار النغم لا تزالُ مُفلِتةً في الطبيعة.

وذات يوم، وقد تجمّعت على بثّ منجيرته الأربعةُ

الآفاق، وتنزّل الجلَدُ يسيراً، وراحت موجاتٌ من النهر عند المصبّ تتوقّف وتُصغي، طيّب لمنجيرته شيخٌ صَحِب الدهر وقال:

ــ ألحانُكَ، أيها العازف الإلهي، ستوقظ يوماً بِلتيسى.

ــ بِلتيسى ! قال الفتى، يُعجبني هذا الاسم، فمَن تكون ؟

فيجيب الشيخ:

ــ إنها حسناءُ الغدائِر الشُّقر، حَوالَى أول الزمن تحوّلت إلى نبعة ماء، ضوءٍ وذهب، وهي لا تعود سيرتَها البشريّة الا مرّةً كلّ الِف عام.

فسأل سِيدَار:

ــ وعُمرُها ؟

ــ إطمئنَّ بالاً، إنها لمّا تتخطَّ الطفولة بعد. كُتب لها أن تبقى موصولةَ النضارة، ليبقى الربيعُ يولد على اصابعها، والنجومُ تتنزّل عليها دبابيس تشكُّها في النول الذي عليه يحاك عمرُ الورود.

فقهقه الفتى ملء فمه، وعاد يُرقِص المنجيرة.

لكن القصة ما لبثتْ أن راحت تحفر في خياله.

وعندما تعب القصب وكفَّ عن بثّ، وأخذت الآفاق

تتراجع، والجلَدُ يرتفع إلى مكانه، وموجاتُ النهر عند المصب تُكمل سَيرها صوب الخضمّ، شعرتِ الدنيا ان بعضاً من غيمة دَكناء راح يمدُّ خيوطه على مخيّلة العازف الضِلّيل.

وفي اليوم التالي قصد سِيدَرا إلى المكان نفسه، علّه يحظى بلقاء الشيخ.

ولكن ما من أحد.

سوى أن الشمس كانت في منتصف القُبّة، وحَورُ الضفة في سكون عَجَب، فلا سوسنةَ تَكبُّ الشذا ولا ورقةَ تَقلق، وكأنما النياسمُ لجأت إلى خدرها وخلّت الأرض لسلطان الحَرّ.

لا، لا عهدَ لصديقته الطبيعة بهذا الوجوم. قال:

ـــ سأنفخ، في منجيرتي، لحناً، رطباً هذه المرّة، أسُلّ به روح النار أنّى وُجدت، حتى ليبرد الوجود ويرتعش وتتطلّب الشمس مِعطفاً، ومتى أضيئت المصابيحُ في الليل سأسمع لها، من شدّة البرد، تأوّهاً وصريف أسنان.

قال، واخذت أناملُه تتنقّل على النِقاط السود من منجيرته قبل أن تلامِسَ شفتها. وعندما ترنّح رأسه بقَبول، وهتّف القصب بين يديه: « هات »، لم يبقَ عصفورٌ في

الأرض الا سكت، مدركاً أن جديداً وُلد في النغم.

روحُ الندى تُقبل معتمرةً بمنديلٍ أبيض، ولينُ القدود يتحطّم في الجوّ فاضحاً سرّ المَيْس. الينابيع تؤوه، ونبضاتُ الماوية في كل بيلسانة وفلّة ونارديِنَة تشيع. فكأنما الكون بأسره وردةٌ بيضاء تُعلن نفسَها ثم تزول ثم تولد من جديد ومن جديد تزول. غَيبُ زهر ينكشف لكلّ حصاة، الأرض جميعاً تهتزّ ولا اهتزازَ الورق لهبوب النسيم.

ــ هذا انا بلتيسَى.

فذُهل للرؤيا.

ــ مَن ؟!

ــ بلتيسَى، حسناءُ الغدائر الشُقر. وُلدتُ خاطرةً في البال، نضرةً لا أيبس. وهكذا سأبقى أتنقّل شفّافةً في داخل العقول أشهد واحدَها يَنقَح ويلد.

« سواي يحظى بالنتائج وأنا أعايش المبدأ. يعرفون المظاهر، واتغلغل في تضاعيفَ الشيء بذاته.

« صحبتُ العقلَ في جبيل وصيدون وعلى ضفاف الغانج والفُرات والنيل. صحبتُه في أثينة ورومة. شربتُ من كأسه وسكرت. آمنتُ معه وسعيتُ ووجدت.

« ولكن أجملَ كأس من كؤوس الحبّ التي تبادلتُها مع

العقل كانت لنا ونحن في صيدون: كان العقلُ قبلها يعي الشيءَ فينقله اليه، تماماً كما هو. كان بدائياً أشبه بإحدى الحواسّ. الاشياءُ الخضر في الطبيعة تنعكس عليه أشياء خضراً، والرجُلُ رجُلاً، والجميلُ جميلاً. ولكنه في صيدون سما وجاوز ذاته. يا للرِحلة أجملِ الرحلات. انها هذه المرة إلى فوق. من الأشياءِ الخُضر سللنا الاخضرار، ومن الرجُل الرجولة، ومن الجميل الجَمال.

« تخطّينا المحسوس وبتنا نجرِّد.

« والمغلق، انفتح لنا المُغلق على مصراعيه: عرفنا النار والمعدن، قلنا للتراب: لمجّرد ما انت في الوجود تكون قادراً على النبات، سوف تمضي صوبَ مطلق قدرة. سنعضدُكِ، أيتها الطبيعة، في عملك المُحيي. نستنبط المِحراث يشقّ الأرض ويُرغمها على عطاء فوق العطاء. ولن ندع الفرْدَ يعمل لكل ما يحتاج اليه والا ظلَّ عملُه بدائيةً وتلمُّساً. سنؤمّن للجماعة ائتلافاً فيختصُّ كلٌّ بواحدٍ من ضروب النشاط. بعدنا سيغدو الانسان اجتماعياً، سنمكّن الناس من التجمّع والثبات، انهم رُحَّل، سنجعلهم حضَرا.

« ورفعنا مقدورَ اليد إلى قوّة البناء بالحجر.

« وصحبتُ العقل يوم قال للبحر: أنزِلُ اليكَ على جذْع أرزة، أجوبك من قطبٍ إلى قطب، حتى إذا أوفينا على شفا الأرض زرتُك، أيها البحر، وحزرت ما تساوي... لا، ما انت لا محدوداً. امسِ كنتَه. اما اليوم فقد افرغتُك من الوهتك وجعلتُك في يدي وسيلةً ليس إلاّ تُقيمُ علائقَ الحبّ بين قارّة وقارّة.

« ورحنا، العقلُ وأنا، نجوس الفلك نحصيه كما تُحصى الاصابع. فاذا هنالك نجمةٌ ثابتة... كشفنا انها دوماً صوب الشمال، فشككناها نُقطةً في كتابنا البحريّ، نقطةَ هَدْيٍ نستعينها في تصويب سفننا يوم نقومُ بأسفارنا الشجاعة.

« ثم رافقتُ العقل نجزّىء الشيء إلى وحداته الاخيرة. نقول للّفظة: انت العمارة سوف نحلّك إلى حجارة. واذا بين أيدينا الصوت الذي لا يتجزأ، فجعلنا له رمزاً في الكتابة وسمّيْناه « الحرف ». واكتشفنا ان الفاظَ الانسان جميعاً مكوّنةٌ من بضعةٍ وعشرين صوتاً، فلا حاجة بعد إلى رسم الخواطر ولا إلى الرمز بما لا يُعدّ. قبضةٌ من الحروف تُغني. اداةٌ اوجدناها، مركبٌ آخرُ يُقِلُّ الخاطرة عبر المكان وعبر الزمان، ولن تُعدِّل فيه العصور.

« وفي صيدونَ تعرّفتُ إلى فتى جميل بادلتُه ما هو فوق

الحب، وعلّمني سرَّ الاشياء، سراً لا يزيد عليه احد.

« انه موخوس، موخوس الصيدوني.

« كنا نجري على شاطئ البحر، قبالةَ جون ولا اجمل.

« كان يلاعب باصابعه حصاةً ويضاحكها مضاحكة الطِفل، ثم يلتفت إليّ ويقول: انظري. هذه هي المادة. ان لها هي ايضاً هجاءها. ما هي ملأى كما يبدو لك. انها ذرّات، جُزيئات من وجود في فراغ ولا أهْوَل. وتدور وتدور وتدور.

« لم أفهم يومئذ ما راح يكشفه لسذاجتي، ولكنني اليوم، وقد استيقظتُ على أرقى اوطان الانسان، وشهدتُ « القصبة العاقلة » تُسخِّر لسلطانها المادة والكون، تذكرتُ حبيبي الصيدونيّ، وودت التنقيب عن قبره المجهول أحلُّ عليه ضفائر شعري الذهبي، وبها أظلّله وأقيه من حر ».

ـــ وأنا ؟! يسألها سِيدَارا لهيفاً.

ـــ أنتَ ؟ أنتَ من حفدتِه، ايها العازف العبقريّ، ولو لم يتأتَّ لكَ اللحنُ كما دانت له هو اسرارُ الطبيعة لما ايقظتَني من سُبات الحجر، حيث عشتُ بعضاً من دهر، نبعَةَ ماءٍ، ضوءٍ وذهب.

ــ ولكن ما لنا وكلّ هذا. الآن مَن انتِ يا بلتيسى ؟ قولي قولي وحياةِ هذه الضفائر الشقر.

فتنهّدت ثم أجابت:

ــ حسناءُ لعوب، أحببتُ الطبيعة واحبّتني، فاتفقنا على أن لا أعرف حياة البشر: أبقى إلى الأبد في الوجود، طفلةً أو أزيد، على أن أتجلّى للناظر نبعةَ ماء تدفاقها هذه الغدائر.

ــ أوَما من أمل بأن تبقَي كما أنتِ الآن، بشراً وتكبري راكضةً قليلاً في العمر، نيساناً، نيسانين، ثلاثة ؟

فأدركتْ بلتيسى ما يُلمع اليه، وحَزّة الألم في قلبه، فرنت إليه بكل ما في شُقرتها من دلال، وقالت:

ــ حرامٌ عليّ أن أكبر، والاّ لم تبق في الوجود اصابعُ عليها يولدُ الربيع، وتتنزّل النجوم دبابيسَ أشُكّها في النول الذي عليه يحاك عُمْرُ الورود. ولكنني، كُلّما سمعتُكَ ترفع البرودَةَ في النغم إلى قوة الحرارة، مُشيعاً في الأشياء روحاً لم يعرفه الفنّ، حتى لأستطيبُكَ أكثر من نبعة ماء، ضوءٍ وذهب، وأحبك أكثر من ذاتي، فإنني، وحياةِ عينيك، أعودُ طفلةً شقراء تكرُّ على الأرض لتعيش في نغماتك وتشهد الأربعةَ الآفاق تتجمّع على بثّ منجيرة، والجلدَ يتنزّل يسيراً، وموجاتٍ من النهر عند المصبّ تتوقّف وتُصغي.

إلى آخر الأرض

قُبيلَ الحرب الكونيّة الثانية، كان لقنصل غربيّ معتمدٍ لدى لبنان ولدٌ جميل أشقر لمّا يبلغِ التاسعة. ففكّر بأن يعلّمه لُغَةَ لبنان إلى جنب الانكليزية والفرنسية. وكان ذلك عَقِبَ ان حدّثوه عن مربّيةٍ نمساويةٍ من مواليدِ لبنان طارت لها شهرةٌ في الكفاءة والتهذيب.

فاستقدمتها زوجتُه تَعرِض عليها الأمر، فاذا هي في حُدود الخامسة والعشرين، فارعةُ القامة، خضراءُ العينين نجلاؤهُما، ذات بَشرة بيضاءَ بيضاء.

فمازحتها الأمّ:

ـــ هذا الحُسن وتزاولين التعليم ؟!

فأجابت:

ـــ والدي كان أُستاذاً في فيّنا وأُمّي درّست في الجامعة. وكذلك جدّي وأخوه وأختُه.

فأطرقت زوجةُ القنصل ثم غيّرت الحديث:

ـــ وكيف أتقنتِ لغةً ساميّة ؟

فأجابت:

ـــ أمّي لبنانية. ويوم قُتِل أبواي في حادث سيّارة استقدمني خالٌ لي إلى عاصمة لبنان وكنتُ لا أزال طفلة.

لم يكن لزوجة القنصل بنت، فشعرت بأن شيئاً يشدّها إلى النمساوية الحسناء.

ألا أنها تهيّبت الحلول محل غائبين يزيدهما العِلم جلالا، فخنقت كلمةً كانت قد مرّت ببالها، ولكنها عوّضت بابتسامة حلوة أشعرت الصبيّة بأنهم سيحبّونها كثيراً في بيت القنصل الغربيّ.

وكان الولد حاضراً.

وما هي حتى دخل القنصل مضطرباً على بعض حزن.

ـــ تعرفين ؟ قال لزوجته. صدر قرارٌ بنقلنا إلى مدريد.

على ان نكون هناك بعد ثلاثة أشهر. حلمُنا بأن يدرس الولد لغة جديدة تبخّر.

وهمّت المربّية الحسناء بان تنسحب.

فاستدركت الأم تقول:

ــ ومع هذا سيدرس الولدُ لُغةَ لبنان. ما رأيُكِ، يا آنستي، لو تبدئين منذ اليوم، منذ الساعة ؟

مرّ ببال النمساوية أن تتردّد ولكنها، كما بذهول، قالت:

ــ لا بأس.

وهمست الأم في أذنها:

ــ سأفجعك إن صارحتُك بأن الولد عديمُ الميل إلى درس اللّغات.

ــ لا عليكِ. كلّ ما أريد هو ان اعرف أين تكمُن قوتّه.

ــ في مادّة التاريخ، أجابتِ الأم. هنا هو البطل البطل. تاريخُ اليونان يرويه لك مع أرقامه، ويُفسّره. وهكذا تاريخُ رومة وأُوروبة الحديثة.

بعد هنيهات كانت النمساوية تتمشى مع تلميذها تحت ادواح باسقَة من حديقة لا تنتهي.

فبادهتِ الولدَ بالانكليزية:
ــ جميلةٌ هذه الأشجار. تكاد لِكبرها تُظَن من عهد حيرام. حيرامُ مِلِك لبنان، الذي أرسل إلى سليمانِ معماريّين ينون هيكلَ أُورشليم. هذا الضربُ من الشجر يسمّى بلغتنا « السنديان ».

ــ « السّنديان »، ردّد الولد، مِن بعدها. لفظةٌ جميلة! بلى جميلة!

قال ذلك وهو مسَمّرٌ إلى عيني المربيّة الخضراوين لوزيتين. ثم سأل:
ــ وكيف تقولون، بلغتكم، لشيءٍ اكثرَ من جميل؟

فأجابت:
ــ « رائع »، « رائع ». أُلفُظها كلَّها. العين حرف من حروفهم يظنّونه ثقيلاً. ولكنهم إذا خفّفوه كما هو في الأصل بدا أعذبَ الحروف. انه حرفٌ غنوج. ألا ترى؟ عريقٌ هو، فينيقي الأصل، سُمع ذات يومٍ على ضفاف الأمازون يَلفظُهُ الشجعان من بحّارة صيدون وصور الذين بلغوا البرازيل ثلاثة آلاف سنة قبل كولومبس، إلى ما هنالك من قِصّة تشيل إلى آخر الأرض وتُميت وتحيي.

ـــ قبل كولومبس ؟! عَجِب الولد، حدثيني حديثهم، إنني أحبُّ التاريخ.

ـــ وأنا أحبّه. ولكنني لا أعرف سوى تاريخ لبنان.

فقال:

ـــ لا بأس. ويبدو أن تاريخ لبنان « رائع ».

ولفظها هذه المرّة بلغة المربيّة، فجاءت العينُ غنوجاً كما ارادت.

فضحك من نفسه ثم أكمل:

ـــ ستتناولين الطعامَ معنا. أوليس كذلك ؟ أكيداً ستستبقيك أمي للغداء.

وتلفّت إلى الساعة:

ـــ أنظري، انه لا يزال بيننا وبين الظهر ساعتان طويلتان، فلنتكلّم على الشجعان من بحارة صور وصيدون، الذين بلغوا البرازيل ثلاثةَ آلاف سنة قبل كولومبس، إلى ما هنالك من قصّة تشيل إلى آخر الأرض وتُميت وتحيي.

انقضى شهران فإذا الولد قد تَقدّم في اللغة. كان يعرف ان يطلب إلى الخادم اللبنانيّة كلَّ حاجاته، ولكنه كان أكيداً لا تعُوزه ولا لفظة ليتكلم على بحّارة صيدون وصور الذين بلغوا البرازيل ثلاثة آلاف سنة قبل كولومبس إلى ما هنالك

من قصة تشيل إلى آخر الأرض وتُميت وتحيي.

وطارت للصغير شهرة في لغة لبنان وتاريخه. وكان قناصل الدول المعتمدون لدى حكومة بيروت يستضيفونَهُ ووالديه غير مرة ليستمعوا اليه يتحدّث في التاريخ بلغة اللبنانيين الأقحاح.

ــ بلى، كان يقول، ديودورس الصقلّي، المؤرخُ الذي قضى شطراً من حياته في قرطاجة، صريحٌ صريح. في المجلد الثاني، الكتاب الخامس، يذكر ان الفينيقيين بَنوا دكار قاعدةَ السنغال الحالية، بين القرنين الثاني عشر والحادي عشر ق. م. وإن إحدى عماراتهم البحريّة خرجت من دكار متوغّلة في الأطلسي عِبرَ جزائرَ تدعى اليوم «جزائرَ الرأس الأخضر»، ويصف ديودورس البلادَ التي انتهت اليها العمارةُ عبر الاوقيانوس. إنه وصف البرازيل لا يقبلُ شكاً.

ويمضي في التأكيد.

ــ لدينا أكثر من ذلك. لدينا نصوص ماديّة. ففي العام ١٨٧٢ عثر فرنسيسكو بنتو، المهندس البرازيلي، وكان يعمل في مناجم كوروجا في بورموراما، على اكثرَ من عشرين مغارةً قديمة استخرج الفينيقيون معادنَها منذ

عَشراتِ المئات من السنين. على جُدرانها كان نحو مئة وخمسين كتابة، نقل بنتو نسخة عنها إلى بدرو الثاني امبراطور البرازيل. وكان هذا عالِماً يرئِس بنفسه « ناديَ الجغرافية والتاريخ »، فبعثوا بها إلى أرنست رنان الذي ترجمها مؤكداً أنها فينيقية.

« وكان أن بدأت الحفريات في هذا الاتجاه، حتى اذا حَلَّ العام ١٩١١ دعت حكومة البرازيل العالِمَ النمساويّ لودفيك شوانهاغن إلى إلقاء دروس في بعض جامعاتها. بقي العالِم خمسةَ عشَر عاماً يُنقِّب في ولايتي مارانيون وبياوي، فانتهى إلى إلقاء سلسلة من المحاضرات على احتلال الفينيقيين للبرازيل استغرقت فصلاً دراسيّاً كاملاً.

« وفي كتابه « تاريخ البرازيل القديم » خلاصةٌ لتنقيبات هذا العالم تشفي غليلاً

ويشكُّ النابغةُ الصغير شيئاً ثم يستطرد:

— انتهى الفينيقيون إلى البرازيل عِقب حربِ طرواده في الألف الثاني ق. م. ولبثوا فيها ثمانمئة سنة.

« ونحن نعرف أن حيرام وقّع مع داود عام ١٠٠٧ معاهدة تعاونٍ على استغلال المستعمرات الفينيقية عِبر الأوقيانوس؛ فتقدَّم صورُ المالَ والخشب وتقدّم اورشليم

اليد العاملة (« ثلاثين الف رجل »، تقول المعاهدة) لأن أجور العمال كانت فاحشة في مملكة صور، بسبب مستوى العيش.

« وبعد داود تتجدّد المعاهدةُ مع سليمان. ويمضي الملِكان في استثمار بلاد الأنهر الثلاثة: فرودين وأفير وأبير وهي جميعاً روافد للأمازون.

« وتستمرّ سُفُن الصيادنة تُقِلُّ عمّالَ سليمان حتى وفاة الملِك.

« وكانت الرِحلة ذهاباً وإياباً تستغرق ما لا يقل عن ثلاثة أعوام.

« وسنة ٩٥٧ تنشِبُ الحرب بين منفيس وأورشليم. فيلزم الفينيقيون الحياد. حتى اذا انتصرت مصر وقّعت فينيقية معها معاهدة تُحلّ عمّال الفرعون محلّ عمّال سليمان، مقابل اشتراكه في استثمار المستعمرات البرازيلية.

« وهُناك يستخرج الفينيقيون للمِصريين مادّة « السالتر » المستعملة عندهم في التحنيط. نعرفَ ذلك من مناجمَ عُثِر عليها في عهد بدرو الفاريس كابرال مكتشف البرازيل، أهمُّها منجَمُ أوباجارا في ولاية سيارا. وفي ولاية باهيا عُثر

على نحو خمسين فرناً فينيقياً وفي ولاية ميناس على أكثر من مئتي فرن.

« ويرجّح لدفيك شوانهاغن ان الفينيقيين دخلوا الاكوادور وخليجَ المكسيك. وقد تركوا في هايتي وسان دومنغ آثاراً جمّة.

« اجتاز الفينيقيون نهر المسيسيّي في الولايات المتحدة.

« والمؤرخان الأميركيان سكيار وديفس صريحان في مؤلّفاتهما الصادرة عام ١٨٤٨. « ان الفينيقيّين، يقولان، دخلوا أميركة الشمالية ». ويَدعمُ هذا الرأي المؤرخ بريتون.

« ويقول شوانهاغن:

« بعد سقُوط صور، بيد الاسكندر، عَهَد المكدونيّ إلى قائده بروتولوماو بالاستيلاء على مستعمرات فينيقية، على أن يساعده الأسرى الصوريون. وصلت العمارة الغازية إلى شواطئ اميركة عام ٣٢٨ ق. م. ولكنها غرقت في مصبّ ريوبراتا. وعام ١٨٩٨ عثر على كتابة فينيقية تؤكّد الحدث. واليك ترجمتها: « عندما كان الاسكندر بنُ

فيليب مَلِكاً على مقدونية أرسل قائده بروتولوماو في بعثة بحرية إلى مستعمرات فينيقية في الأطلسي ».

أين عُثر على هذه الكتابة ؟ في مونت فيداو، في أميركة ؟ لا، وإنما في مقدونية ».

وهكذا يروح العالِم الصغير يقصّ قصةَ الفتح اللبناني القديم بلغة اهل لبنان معزِّزاً اقواله بشواهدَ واقوالِ باحثين، ونقوشٍ، وكتبٍ علميّة.

وتراه احياناً يترك متحدّثيه إلى مكتبته ليجيئهم بمجلّداتٍ مصوّرة تحتوي على نصوص فينيقية وجدت في البرازيل، ويأخذ في ترجمتها غيرَ ناسٍ ان يقول ان هذه او تلك من كلماتها لم تُفَكّ بعد.

وتنقضي الأشهر الثلاثة.

ويأزف يوم الرحيل.

على المرفأ الآن، القنصل وزوجته وثلاثةُ صبية.

انهم قلقون لتأخُّر النمساويّة الحسناء.

حتى إذا أطلّت من بعيد حبسوا الدموع.

ويقول القنصل لزوجته:

ــ لماذا لم نُعطَ أن يكون لنا ولدٌ شاب. لماذا، لماذا ؟!

فتخنق الزوجة غصّة.

ــ وأنت أيضاً تفكّر هكذا ؟

اما الصغير فكان يبدو عازماً.

فهمَت الأم ما يجول بباله، فتقدمت منه وهزّت كتفَه موقظة:

ــ كن رابط الجأش، ما أنت طفلاً.

وانقضى الوَداع ولم تُذرف دمعة.

جميعاً بادلوا النمساوية الحسناء عناقاً طويلاً.

إلا الصغير.

كان يُضمر لها قُبلة تشيل الى آخر الأرض وتُميت وتحيي.

فهرست المجلد

فهرست الكتاب

